سلسلة

دراسات نفسية إسلامية

(٥)



الدين للحياة

إعداد

الدكتور سيد عبد الحميد مرسى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر / ٣ حوض الموصلي بجوار جامع الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

« هو الذى جعـل لكم الأرض ذلولا فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »

« صدق الله العظيم »

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين •• والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ••

لهذا الكتاب قصة •• فقد قرأت فى جريدة الأهرام الغراء مقالا لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر بتاريخ ٣/١/١٩٨٥ وكان موجها للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمـــود بعنوان « لمـــاذا أغفلت الجزء الخطير من مفهوم العلمانية وهو عزلها الدين عن الحياة » ؟

ولقد لفت نظرى هذا العنوان وشدنى لقراءة المقال بعمق ، ووجدت فيما ذكره فضيلة الدكتور النمر ما يثير التحدى ويحفزنى لأن أبدأ فورا فى وضع فكرة كتاب بعنوان « الدين للحيـــاة » ضمن السلسلة التى أكتبها بعنوان « دراسات نفسية اسلامية » •••

ولقـــد استشهد فضيلة الدكتور النمر فى مقـــاله برأى الدكتور محمد البهى ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه : « الفكر الاســـلامى والمجتمع المعاصر : مشكلات الحكم والتوجيه » ، وقد عرف فيه الاتجاه العلمانى بأنه « الايمان بوجوب تنحية الدين وابعاده عن الدخول فى أى شـــأن من شئون الدولة ، وعلى وجه أخص فى التربية » •• والواقع أن الاسلام يحارب الانغماس فى الروحية البحتة ، والانقطاع عن الدنيا ومباهجها ، والاعراض عن التفكير فيما أودعه الله فى أرضه وسمائه من أسرار ، والانصراف عن قوى الانتاج المودعة فى هذا الكون •• كل ذلك يمقته الاسلام كل المقت ويحاربه بكل قوة ، اذ أن الروحية البحت تعطيل لقوى التفكير والارادة والعمل ، وقتل للأمانى والمطامح ، واهمال للأمانة التى حملها الانسان خليفة الله فى أرضه •

ان عبادة الله لا تأتى عن طريق التبتل والزهد فى الدنيا ، وانما تأتى عن طريق العمل فى عمارة الكون ، والكشف عن المنافع الكامنة فى طبقات الأرض وأجواء السماء • ان عبادة الله تأتى عن طريق وحدانيته تعالى واستحقاقه وحده للعبادة • والقرآن الكريم يحث الناس على أن يضربوا فى الأرض ويسعوا فى مناكبها وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم من أرض للزراعة ومعادن للصناعة وبحار للتجارة • قال تعالى :

● « •• ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها •• » (الحديد : ٢٧)

● « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا •• »
(البقرة : ٢٩)

● « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » • (النحل : ١٤)

● « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور » • (الملك : ١٥)

● « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، أن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » •
(النحل : ١٠ — ١١)

ما أروع هذه الآيات وما أصدقها وأهداها •• فأين قلوب أولئك الروحانيين المنقطعين عن الدنيا ومباهجها ومتعها الساهين عن سنن الكون وأسراره ؛ ألا تلين قلوبهم لهذه التوجيهات الرشيدة والتعليمات القويمة ؟ أين عقولهم ؟ ألا تميز الخبيث من الطيب والشر من الخير ؟ ألا تتفكر فى ملكوت السموات والأرض فتتعظ وتعتبر وتعمل لصالحها وصالح الانسانية ؟

ولقد نهانا رسول الله ﷺ عن الرهبانية بقوله : « لا رهبانية فى الاسلام » •

من هذا المنطلق حاول الكاتب من خلال فصول الكتاب أن يناقش موضوع « الدين للحياة » •• فلقد بنى الاسلام تعاليمه على التجاوب مع فطرة الانســان والتوافق مع واقعه الذى هو عليه • والاســلام لا يحارب الانسانية بما فيها من ميول دافعة الى حب الدنيا ومباهجها وملذاتها ، ومن نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ومن ثم يقدم لها الدواء الناجع لتستقيم وتأخذ نصيبها من الدنيا ونصيبها من الآخــرة دون افراط أو تفريط •• وعلى هــذا فلقد بذل الكاتب جهــده ليبرز فكرة « الدين للحيــاة » فى فصول الكتاب ، من خلال مناقشة دور الاسلام فى الشئون الدنيوية •• فالمغزى أو المحور الذى تدور حــوله فكرة الكتاب هى ابراز أحكام الاســلام وشريعته السمحة فى كل شأن من شئون الحيــاة •

فتناول فى الفصل الأول بعنوان « الدين وشئون الحياة » مناقشة « نظام الحكم » ، باعتبار أن الحكومة الاسلامية ضرورة للحفاظ على العقيدة ، واعلاء كلمة الله الخالق ــ ســبحانه • ثم ناقش مفهــوم « وحدة الأمة الاسلامية » من حيث وحدة العقيدة ، ووحدة العبادة ، ووحدة السلوك ، ووحدة المشاعر والأفكار والتصورات ، ووحدة التاريخ والأمة ، ووحــدة الدستور والقيادة والقانون • وانتقل الى مناقشــة « المجتمع الاسلامى » ، باعتبار أن الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد يتمثل فى عبــادة الله الواحد الأحد • ثم ناقش « ســكينة النفس » باعتبارها الينبوع الأول للسعادة وأن المؤمن أولى بها من غيره استجابة لنداء الفطرة ، واهتــداء الى سر وجوده ، ولنجاته من عذاب الحــيرة والشك ، ولأنه يعيش فى معية الله وفى صحبة النبيين والصديقين ، وللرضا واليقين • ثم ناقش « السياسة التعليمية » ، و « الاقتصــاد الاسلامى » •

واختص الفصــل الثانى ــ بعنــوان « الدين المعــاملة » ــ

مناقشة النواحى الأخلاقية فى الاسلام • فرسالة الاسلام تنشد تدعيم الفضائل ونشرها بين الناس •• فمن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد من جميع نواحيه : باعتباره جسما له ضروراته وحاجاته ، وعقلا له مواهبه ، ونفسا لها مشاعرها ودوافعها • ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع : فى آدابه ومجاملاته ، وفى اقتصاده ومعاملاته ، وفى سياسته وحكمه •

وفى الفصل الثالث ناقش الاسلام باعتباره « دين الانسانية » ، فالاسلام يتميز بالصفة الانسانية ، والصفة العمومية ، والجاذبية الاجتماعية ، والموضوعية ، والالزام الاجتماعى ، والترابط الاجتماعى • وتتضح مظاهر التكريم الالهى للانسان فى استخلافه فى الأرض ، وخلقه فى أحسن تقويم ، وتميزه بالعنصر الروحى ، وبالعقل والتفكير ، وتسخير الكون لخدمته ، والغاء الوساطة بينه وبين خالقه سبحانه ، والاعتراف بالكيان الانسانى كله •

واختص الفصل الرابع بالاسلام باعتباره « دين الواقع والعمل » فلقد جاء الاسلام بعقيدة واقعية ، وراعى واقع الحياة وظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، وشرع الرخص والتخفيف ، ونوع الأنشطة • وراعى الاسلام الواقعية فى التعامل مع الانسان •• فلم يفرض عليه التخلى عن حقوقه ، وأقر الفروق الفردية بين الناس ، وراعى الظروف الاستثنائية • والاسلام « دين الشمول » ، فهو رسالة الزمن كله ، والعالم كله ، والانسانية جمعاء • والاسلام « دين العمل والانتاج » ، حيث يقرر أن العمل عبادة وفريضة •

وناقش الفصل الخامس الاسلام باعتباره « دين الوسطية والعدل » • فتتضح مظاهر الوسطية — التوازن — فى أنه وسط بين المتشددين المسرفين فى الاعتقاد والماديين الذين ينكرون ما وراء الحس ، ووسط بين الملحدين وبين من يعددون الآلهة ، ووسط بين من يعتبرون الكون هو الوجود وحده وبين من ينكرون وجود الكون ، ووسط بين من يؤلهون الانسان وبين من جعلوه أسير الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية

أو الدينية ، ووسط بين الذين يقدسون الأنبيـــاء وبين من كذبوهم ، ووسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحـــده والذين لا يؤمنون الا بالوحى والالهام • والاســـلام وسط فى الأخلاق بين غـــلاة المثاليين وغلاة الواقعيين • والاسلام وسط فى التشريع باعتباره يحقق التوازن بين التحريم والتحليل ، وفى شئون الأسرة من حيث تعدد الزوجات واباحة الطلاق • كما تلتقى الفردية والجماعية فى الاسلام بشكل متزن ، بحيث لا تطغى احداها على الأخرى • و « العدل » من الأمور الأساسية التى قررها الاسلام •• فلقد قرر مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العـــدل بين الجميـــع ، وأقام العـــدالة الاجتماعية على أساس التحـــرر الوجدانى والمساواة الانسانية • والتكافل الاجتماعى •

واختص الفصـــل السادس بمناقشة الاسلام باعتبـــاره « دين التشريع للفرد والأسرة والمجتمع » • فالفرد يعيش فى كنف الجماعة فى وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى بحدود • وتحظى الأسرة فى التشريع الاسلامى باهتمام كبير باعتبارها النواة التى تنبثق عنها جميع العلاقات البشرية • ولقد منح الاسلام المرأة حقوقا لم تمنحها لهـــا شريعة أخرى • وأبرز الاسلام « صلة الرحم » وخصها بالعناية والرعاية ، وحث على بر الوالدين •

وفى « الخاتمة » حاول الكاتب أن يصهر كل الأفكار السابقة فى بوتقة تبرز بوضوح أن الاسلام دين العاملة ، ودين الواقعية ، ودين العمل ، ودين العدل ، ودين الانسانية والرحمة ، ودين الوسطية والاتزان ، ودين العمل والانتاج •• أى أنه « دين الحياة » •• والله الموفق •

جدة : ربيع الأول ١٤٠٦ هـ
ســـــبتمبر ١٩٨٥ م

د • سيد عبد الحميد مرسى

* * *

الفصل الأول

الدين وشئون الحياة

● مدخـــل :

الاسلام دين المرسلين والنبيين جميعا ، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله ــ سبحانه ــ الرسالات • وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى تأكيدا تاما •• فذكر على لسان نوح قوله :

« •• وأمرت أن أكون من المسلمين » (يونس : ٧٢)

وعلى لسان ابراهيم واسماعيل :

« ربنـــا واجعلنا مسلمين لك •• » (البقرة : ١٢٨)

وفى وصية يعقوب لأولاده :

« •• ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون »
(البقرة : ١٣٢)

وعن موسى عليه السلام :

« •• فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » • (يونس : ٨٤)

وعن يوسف عليه السلام :

« •• توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » •

(يوسف : ١٠١)

وعن حواريى عيسى :

« •• آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » •

(آل عمران : ٥٢)

وقوله تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . (الشورى : ١٣)

والاسلام فى الأصل معناه « الاستسلام » لله فى أمره ونهيه على لسان الوحى ، فمن أسلم وجهه وقلبه لله فى كل أمر فهو المسلم حقا . ولما كان النبيون والمرسلون أكثر الناس استسلاما لله ، فقد كانوا بذلك أول المسلمين .. قال تعالى فى كتابه الكريم :

● **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .**

(الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣)

● **« .. قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » .**

(الأعراف : ١٤٣)

والاسلام الذى دعا اليه رسول الله ﷺ يعرف من الكتاب والسنة المحمدية ، وهو هداية كاملة للانسان . فان الله عز وجل جعله كاملا شاملا ، بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود الا وقد بين حكمها فيه اباحة أو حرمة ، أو وجوبا ، أو فريضة .. سواء فى ذلك شئون العقيدة ، أو العبادة ، أو السياسة ، أو الاجتماع ، أو الاقتصاد ، أو الحرب ، أو السلم ، الى آخر ما يتصوره الانسان من شئون الحياة .

قال تعالى فى وصف كتابه الكريم :

« .. ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء .. »

(النحل : ٨٩)

« .. وتفصيلا لكل شىء .. » (الأعراف : ١٤٥)

اذن فالاسلام أساس وبناء .. فالأساس هو الأركان ، والبناء هو أحكام الاسلام فى قضايا البشر . انك تجد اذا درست الاسلام ، أن

للاسلام منهاجه السياسى المستقل ، حيث ترى فيه نظرة الاسلام المنفردة الى موضوع الأمة ، والوطن ، ونظام الحكم ، وطريقة الشورى ، والقضاء ، والأجهزة التنفيذية ، والتقسيمات الادارية ، وما أشبه .

— واذا درست الاسلام وجدت أن له منهاجه الاجتماعى المستقل .. حيث ترى فيه نظرة الاسلام المتميزة الى الانسان عامة ، والى الرجل ، والى المرأة ، والى تنظيم الأسرة ، والحياة الاجتماعية ومفاهيمها ، الى آخر ذلك .

— واذا درست الاسلام وجدت أن له منهاجه الأخلاقى المستقل .. حيث تجد طريقا أخلاقيا واضحا شاملا متكاملا راقيا واقعيا ، لم يبق فيه جانب من جوانب الحياة الا وقد أرشدك فيه على أنظف سلوك وأطهره .

— واذا درست الاسلام وجدت أن له منهاجه التعليمى المستقل الذى يعمر الدنيا ولا ينسى الآخرة ، ورأيت جوانب هذا المنهاج متكاملة لا نقص فيها ولا عوج ولا افراط فيها ولا تفريط .

— واذا درست الاسلام وجدت أن له منهاجه العسكرى فى الأهداف والتطلعات والتعبئة والتنفيذ والتدريب والأسس والقواعد والمفاهيم .

— واذا درست الاسلام وجدت أن له منهاجه الاقتصادى المستقل ، سواء فى ذلك تنظيمه المستقل لقضية الملكية أو لخزينة الدولة ، أو لحل المشاكل الاقتصادية الاجتماعية أو العلاقات الاقتصادية بين دولته وبقية الدول .

وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشرى وشئون الحياة الدنيا الا وللاسلام فيها حكم ، ومجموع هذه الأحكام هى بناء الاسلام الذى تقوم دعائمه فوق أركانه[1] .

* * *

---

(١) سعيد حوى ، **الاسلام « ج ١ »** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٧) ، ص ٣ — ٨ .

الحكومـة الاسـلامية

لابد للاسـلام من حكومة تقيمه وترعاه وتحميه •• فالحكومـة الاسلامية ضرورية للحفاظ على العقيـدة وحمايتها من عبث العابثين ، وخروج المارقين ، وزندقة الزنادقة •• والحكومة ضرورية من أجل اقامة العبادات ، فالكسالى عن الصلاة يؤدبون ، والمتنعون عن الزكاة يعزرون ، وتاركو الصـيام يعاقبون ، والمقصرون عن الحج وهـو باستطاعتهم يزجرون •

والحكومة الاسلامية ضرورية لحفظ الأرواح ، قال تعالى :
« •• **كتب عليكم القصاص فى القتلى** •• » (البقرة : ١٧٨)
« **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » •
(البقرة : ١٧٩)

والحكومة ضرورية لحفظ الأعراض ، قال تعالى :

« **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** •• »
(النور : ٢)

« **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** •• » (النور : ٤)

والحكومة ضرورية لاقامة الجهاد ، قال تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظـة** • • » (التوبة : ١٢٣)

والحكومة ضرورية لحفظ الأموال ، قال تعالى :
« **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** •• » (البقرة : ١٨٨)

والحكومة ضرورية لاقامة ما يلزم المسـلمين من تعليم وتربية ، واقامة كل أنظمة الاسلام السياسية ، والاجتماعيـة ، والاقتصادية ، والأخلاقية ، والثقافية ، والعسكرية •

والحكومة ضرورية من أجل اعلاء كلمة الله .. فاذا لم يكن للاسلام حكومة ترعاه وتحميه وتطبق مبادئه يكـــون ضعيفا ، والنفوس تحب الانطلاق والانفلات الى طريق الهوى والشهوات ، قال تعالى :

« **ولو اتبع الحق أهــواءهم لفسدت الســموات والأرض ومن فيهن** . » (المؤمنون : ٧١)

والأساس الذى تقــوم عليه الحكومة الاسلامية هــو الالتزام بشريعة الله ، وانبثاقها عن ارادة المسلمين ، وتنفيذها لأحكام الله ، وقضاؤها على نوازع الهــوى المخالف للشريعة الاسلامية ، وصــلاح أفرادها فى أنفسهم .

والحكومة الاسلامية حكومة فريدة فى نوعها ، لأن المعانى التى تقوم عليها فريدة .. فللاسلام نظرته الخاصة فى موضوع الأمــة والوطن ، وتنظيم الدولة مدنيا وعسكريا . كما أن للاســلام سياسيته الاقتصادية ، والعسكرية ، والتشريعية ، والثقافية المنفردة المتميزة[٢] .

* * *

الأمــة الاســلامية

يقول تعالى فى محكم كتابه الكريم :

« **أن هذه أمتكم أمــة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » .

(الأنبياء : ٩٢)

ان مظاهر وحدة الأمة الاسلامية مظاهر كثيرة ومتشابكة لا مثيل لها ، ويرتبط المسلمون بهــذه المعانى ارتباطا يشكل وحــدة تقوم على عوامل كل منها يؤكد الآخر ، حتى يصل الأمر الى حد الانصهار الكامل ، وهذه أهم مظاهر هذه الوحدة[٣] :

---

(٢) سعيد حوى ، **المرجع السابق** ، ج ٢ ، ص ١٠٣ — ١٠٦ .
(٣) سعيد حوى ، **المرجع السابق** ، ج ٢ ، ص ١٠٨ — ١١٢ .

١ ـ وحـــدة العقيدة :

ان شهادة « لا اله الا الله محمد رسول الله » هى أصل وحـــدة المسلمين ، متى ذكرها الانسان وقالها مخلصا كان من أمة المسلمين ، وما دام خارج دائرتها فليس منها • انه متى أسلم الانسان وجهه لله ، على طريق رسول الله ﷺ ، فقد تحقق بالعبودية لله ، وتحرر من رق ما سواه • واذا كان الله واحدا ، فقد وحدت العبودية له قلوب المسلمين من كل لون وجنس •

ان عقيدة الاسلام عقيدة ربانية ، مستفادة من كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •• من القرآن الكريم الذى أرسى دعائمها ووضـــع معالمها ، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن • وليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع ، ولا من اضافة هيئة من الهيئات ، وليس لأحد من أئمة الاسلام وفقهائه أن يغـــير أو يبدل فى عقيدة الاسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير • وليس لمؤتمر أو لمجمع ولا لجماعة أياً كانت مكانتها أن تضيف شيئا الى العقيدة الاسلامية أو تحذف منها شيئا • ان مصدر العقيدة الاسلامية هو الوحى الالهى • والعقيدة قضايا صادقة أو حقائق عن الوجود ورب الوجود ، فهى خبر عن القضايا الكبرى فى الوجود •• عن الله وأسمائه وصفاته ، عن عالم الغيب ، عن مستقبل الحياة والانسان ، عن الثواب والعقاب بأنواعـــه وصوره ، وغير ذلك مما وراء الطبيعة مما لا يدركه الحس ولا يهدى الى تفصيله العقل • قال تعالى :

« اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء •• » •
(الأعراف : ٣)

ويقول القرآن الكريم أيضا منكرا على المشركين معتقداتهم فى الملائكة وغيرها :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون •• » (الزخرف : ١٩)

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم .. »
(الكهف : ٥١)

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما .. »
(طه : ١١٠)

* * *

٢ — وحـــدة العبادة :

قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .
(الذاريات : ٥٦)

لقد خلقنا لنعبد الله مخلصين له الدين . فلا يتحقق الايمان بالله — سبحانه — شعوريا وعمليا الا بالعبادة ، ولا تقوم انسانية الانسان الا بها . والعبادة التي فرضت على المسلمين جميعا ، واحدة ، يطالب بها كل فرد .. ان في العبادات الاسلامية معاني كثيرة ، تزيد وحدة الأمة الاســلامية قوة ومتانة وصلابة .. فوحـــدة القبلة حيث تلتقي قلوب المسلمين كل يوم خمس مرات على الأقل متجهة الى مركز واحد ترتبط عنده ، أمر له أثر كبير حتى يشعر المسلم أنه مرتبط ببقية المسلمين . وصوم شهر واحد في العام يشارك فيه كل مسلم أخاه في نوع واحد من الحياة ومن السلوك ، له أثر كبير عميق في توكيد أخوة الاســـلام والايمان . وفي الحج يلتقي المسلمون جميعاً في أطهر بقعة على وجـــه الأرض ، يقيمون شعائر الحج ، وينصهرون في بوتقة الأمة الاسلامية .

والعبادات الاسلامية عبادات ربانية .. فالوحي الالهي رســـم صورها ، وحدد أشكالها وأركانها وشروطها ، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان ، ومكانها فيما يشترط فيه المكان . ولقد جاء الاسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين ، لا يتساهل في واحد منهما قيد شعرة :

الأول : ألا يعبد الا الله . . فلا عبادة لأحد سواه ، ولا لشيء سواه كائنا ما كان ، في الأرض أو في السماء . قال تعالى :

« اياك نعبـد واياك نستعين » . (الفاتحة : ٥)

والثانى : ألا يعبد الله الا بما شرعه ، وما شرعــه انما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه ، وخاتمهم محمد ﷺ الذى نسخ شرعه كل شرع قبله ، والذى كتب الله له الخلود وتكفل بحفظه الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . قال تعالى :

« ان الدين عند الله الاسلام .. » (آل عمران : ١٩)

« .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاســـلام دينا .. » (المائدة : ٣)

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .. »

(آل عمران : ٨٥)

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة ، وان دفع اليها حسن النية وشدة الرغبة فى زيادة التقرب الى الله جل شأنه . ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطى العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت . فالعمل المقبول له ركنان : أن يكون خالصا لله ، وأن يكون على سنة رسول الله . أما محدثات العصور ، ومبتدعات العقول ، فلا مكان لها فى دين الله ، قال تعالى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله .. »

(الشورى : ٢١)

وفى الحديث النبوى الشريف : « اياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

(رواه أبو داوود والترمذى)

* * *

٣ ــ وحــدة السلوك :

لقد أمر الله تعالى المسلمين أن يقتدوا برسول الله ﷺ فى طيب شمائله وعريق خلاله ، فقال تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » . (الأحزاب : ٢١)

كان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه .. يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلسائه نصيبه . ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول . ولقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء .. وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه .. وكان يخالط أصحابه ويمازحهم ويجاريهم ، ويلاعب صبيانهم . ويجيب دعوة الحر والعبد والمسكين ، ويعود المرضى ، ويقبل عذر المعتذر . وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .. وكان عليه الصلاة والسلام كثير السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة . وكان ضحكه تبسما ، وكلامه فصلا . ومجلسه كان مجلس خير وحلم وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تخدش فيه الحرم . واذا مشى كان مشيه مجتمعا ، يعرف فى مشيه أنه غير ضجر ولا كسلان (٤) .

والآداب والأخلاق الاسلامية آداب ربانية .. بمعنى أن الوحى الالهى هو الذى وضع أصولها ، وحدد أساسياتها ، التى لا بد منها لبيان معالم الشخصية الاسلامية ، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة فى مظهرها ومخبرها . ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى برسم المعالم الرئيسية لأدب المسلم وخلق المسلم .. من الاحسان بالوالدين وخاصة اذا بلغ أحدهما أو كلاهما الكبر ، والاحسان بذوى القربى ، ورعاية اليتيم ، وابن السبيل ، واكرام الجار ، والعناية بالفقراء والمساكين ، والصدق فى القول ، والاخلاص فى العمل ، وغض الأبصار ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، والدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأداء الأمانات الى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، والوفاء بالعهود ، وترك المنكرات ، واجتناب الموبقات من

---

(٤) سيد عبد الحميد مرسى ، **الدين المعاملة** . (جدة : ادارة تدريب التسويق ، الخطوط الجوية العربية السعودية ، ١٩٨٥) ، ص ٣ .

الشرك والقتل والزنا والسكر والربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، وغيرها من كبائر الاثم ، والفواحش ، الى غير ذلك من الأخلاق الايجابية والسلبية ، الفردية والاجتماعية . حتى أننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشى ، قال تعالى :

● « **واقصد فى مشيك ..** » (لقمان : ١٩)

● « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ..** » (الفرقان : ٦٣)

● « **ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** » . (الاسراء : ٣٧)

ويعلم المسلمين أدب التزاور عندما يتزاورون ، قال تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم** » . (النور : ٢٧ — ٢٨)

وعلمهم أدب الجلوس اذا تجالسوا ، قال تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، واذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير** » . (المجادلة : ١١)

هذا فضلا عما زخرت به السنة من آيات عديدة [٥] ..

* * *

٤ — وحدة المشاعر والتصورات والأفكار :

ان طريق المسلمين فى حياة واضحة متميزة ، هى طريق النبيين . قال تعالى فى كتابه الكريم :

« **أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » . (الفاتحة : ٦ — ٧)

---

(٥) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** (ط ٢) . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١) ، ص ٣٩ — ٤٠ .

وعن رسول الله ﷺ : « تركتكم على الجادة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه وان صلى وصام وزعم أنه مسلم »[٦] .

وكما أن للأمة الاسلامية طريقتها المتميز ، فان لها فكرها المنفرد ، اذ أن أفكارها ومفاهيمها كلها مقيدة بكتاب الله ، يقول تعالى :

« قد جاءكم بصائر من ربكم .. » (الأنعام : ١٠٤)

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » .

(الجاثية : ٢٠)

وعلى هذا فان تصورات المسلمين وأفكارهم كلها تنبع من أن القرآن هو البصيرة التى يرون بها الأمور . ان مشاعر الأمة الاسلامية واحدة ، وللنفس ابشرية حالات صحة هى مجموع الصفات الطيبة للنفس ، فرضها الاسلام على المسلم ، فهذه أولى حالات التقاء الشعور . ويرتقى هذا المعنى عند المسلم بترقى عواطفه وانفعالاته الاسلامية ، فكلما ارتفعت عواطف المسلمين كلما تلاقت ، وكلما ازداد تأثرهم بالاسلام كلما ازدادت مشاعرهم تلاقيا .

* * *

٥ ــ وحدة التاريخ واللغة :

ان تاريخ المسلم لا يرتبط بطين الوطن ، ولا بلغة الجنس الذى ينتسب اليه .. ان تاريخ المسلم الذى ينتسب اليه ويعتز به هو تاريخ الاسلام ، ودعاته رسل الله عليهم الصلاة والسلام . ان العربى لايربطه بتاريخ الجاهلية أى رباط تقوم عليه نتائج من الولاء أو الاعتزاز أو الفخر ، بل يفتخر بالاسلام ويخجل مما سواه ، وكل مسلم موقفه هذا الموقف .

ان تاريخ المسلم هو تاريخ الأمة الاسلامية ، أى تاريخ الرسل ،

(٦) سعيد حوى ، **الاسلام** ، ج ٢ ، ص ١١١ .

وهذا شيء يملأ المسلم عزة وكرامة ، اذ ليس له مع الشر صـلات أو وشائج ، وهذه عقيدته التى يلقى الله عليها ، قال تعالى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون • فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم » •   (البقرة : ١٣٦ — ١٣٧)

ان أى اعتزاز من جانب المسلم بوشائج غير وشائج الاسـلام يخرجه عن روح الاسلام • قال تعالى :

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض » •

(الأعراف : ١٤٦)

وقال رسـول الله ﷺ : « قال الله عز وجـل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » •   (رواه مسلم)

وقال عليه الصلاة والسلام : « اذا كان يوم القيامـة أمر الله مناديا ينادى : ألا انى جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا • فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم الا أن تقولوا : فلان ابن فلان • فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم » •   (رواه البيهقى)

وهذا تأكيد لقوله تعالى :

« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون • فمن ثقلت موازينه فأولئك هـم المفلحون • ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » •

(المؤمنون : ١٠١ — ١٠٣)

ان الاسلام عقيدة وعبادة وسلوك ، واللغة انما هى تعبير عن هذه المعـانى ، فهى وسـيلة لا غاية ، لذلك أرسل كل نبى بلغة قومه ، قال تعـالى :

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم •• »

(ابراهيم : ٤)

وقد ذكر الله تعالى فى القــرآن أن من آياته التى تدل عليــه اختلاف الألسنة والألوان :

« ومن آياته خلق السـموات والأرض واختـلاف ألسـنتكم وألوانكم ٠٠ » ٠ (الروم : ٢٢)

فشيء عادى اذن تعدد اللغات ٠٠ غير أن الاسلام والقرآن كانا بلغة العرب فى رسالة محمد ﷺ ، وكون العالم مكلفا بهـذه الرسالة ولا تفهم هذه الرسالة الا بفهم اللغة العربية ٠٠ كان من المنطقى أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للأمة الاسلامية خاصة ، اذ أنهـا وحدها التى استجابت لدعوة الله ٠ يقول الامام الشافعى : « ان الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللســان العربى بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له »[٧] ٠ ولا يعنى كون اللغـة العربية هى اللغــة الرسمية للأمة الاسلامية افناء بقية اللغات ٠٠ بل لابد للأمة الاسلامية من لغة مشتركة تتفاهم بها ، وليس معقولا أن تكون هذه اللغة غــير العربية ، فهى لغة عبادتهم ٠

* * *

٦ — وحدة الدستور والقانون والقيادة :

ان منبع الدستور والقانون للأمة الاسلامية هو القرآن والسنة ، ولا يجوز أن يكون للمسلمين قانون يخالف شرع الله ٠٠ فعلى هــذا يكون للمسلمين قانون معاملات واحد ، وقانون جنائى واحد ، وقانون للأحوال الشخصية واحد ، وقانون دولى واحد ٠ وقد يختلف فى فهم نصوص الكتاب والسنة المجتهدون ، الا أن من قواعد التشريع الاسلامى أن خليفة المسلمين بالتعاون مع مجلس الشورى يحق له أن يرجح فهما اجتهاديا على غيره ، ويكون لهذا الترجيح قوة القانون ، وبذلك يكــون للأمة الاسلامية تشريع دستورى وقانونى واحد[٨] ٠

ان هذه القوانين شاملة لمختلف نواحى الحياة ، وتستهدف توفير

---

(٧) سعيد حوى ، **الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١١٠ ٠

(٨) **المرجع السابق** ، ص ١١١ ٠

الكرامة والسعادة والسلام للناس جميعا ، على أســاس من التراحم ومراقبة الله فى السر والعلن ، قال تعالى :

● « .. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضــوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمــات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » . (المائدة : ١٥ — ١٦)

● « .. ومن يتق الله يجعــل له مخرجا . ويرزقــه من حيث لا يحتسب .. » . (الطلاق : ٢ — ٣)

● « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(الاسراء : ٧٠)

● « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا .. » .

(طه : ١٢٤)

وبذلك كانت القوانين فى الاسلام تدور حول الحقوق الأساسية الضرورية لكل انسان والتى لا تكتمل سعادته الا بها وهى : حق الحياة ، وحق العقيدة ، وحق العــلم ، وحق العمل ، وحق الكرامة . وهــذا ما أجمع عليه فقهاء الاسلام حين قالوا : « ان مقاصــد الشريعة حفظ الضروريات الخمس : الدين والعقل والنفس والمال والعرض »[٩] .

ان الأمة الاسلامية لها قائد واحد فى الأصل ، هو رسول الله ﷺ الذى له على المسلمين فرض الطاعة . وعندما أدى الرسول رسالته وانتقل ﷺ الى الرفيق الأعلى كان على المسلمين أن يختاروا خليفة له ، يقيم شريعة الله ، ويقود المسلمين لاستكمال نشرها ، ويسوس المسلمين بها . وطاعته فى حدود الشريعة فريضة ، فعلى كل مسلم فى العالم أن يعطيه ولاءه وطاعته . ولا يجوز بحال من الأحوال أن يبقى المسلمون بلا خليفة وامام ، فوجوده رمز وحدتهم ، ووحــدتهم رمز قوتهم ، وقوتهم هى سبيلهم لفرض سلطان الله على الأرض واصلاح فسادها .

---

(٩) عز الدين بليق ، **منهاج الصالحين من احاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين** . (بيروت : دار الفتح ، ١٩٧٨) ، ص ٦٤ — ٦٥ .

وبعد .. بهذا كله .. بوحدة العقيدة ، والعبادة ، والسلوك ، والتشريع ، والتاريخ ، واللغة ، والقيادة ، تقوم وحدة الأمة الاسلامية أمتن ما تكون وأعظم وأقوى . فالمسلمون أمة واحدة أبناؤها اخوة ، وولاؤهم بعضهم لبعض ، جسد واحد وروح واحدة . قال تعالى :

● **« انما المؤمنون اخوة .. »** . (الحجرات : ١٠)

● **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .. »** . (التوبة : ٧١)

● **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. »** . (الحجرات : ١٣)

ومن الحديث النبوى الشريف :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » . (رواه البخارى)

* * *

المجتمع الاسلامى

الجماعة المسلمة هى الأفراد جميعا فى صلات بعضهم ببعض ، ووجودهم كحقيقة مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة . ولم يعرف القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه ، وفى وصاياه العامة ، الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم . . بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور .. » . (البقرة : ٢٥٧)

ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا ــ التى تعنى التولى والتدبير والحماية ــ الجماعة المؤمنة ، ولكنه فى اعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم الذين آمنوا . وكذلك عندما يوجه

أمرا أو نهيا عاما يوجهه الى المؤمنين فى صـيغة الجمع ، كمـا فى قوله تعـالى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .. » . (النحل : ٩١)

وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة الى الأفراد مجتمعين ، كما فى قوله تعالى :

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينـا » . (الأحزاب : ٥٨)

واذا كانت الجماعة المسلمة هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم — كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفـراد الآخرين معه . فالفرد لم يلغ اذن ، وهو باق بكيانه الشخصى المستقل ، ووجوده كفرد وكوحدة مستقلة لم يمس ، وكل ما وجد له من الجماعة التى هـو عضو فيها — أنه قد أضيفت اليه اعتبارات خاصة بحكم هذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة . وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معه ، والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه . وعلى ذلك فالفرد جزء هام من كيان الجماعة ، ليس استقلاله فى التصرف استقلالا مطلقاً ، وليست حريته مستقلة عن كيان الجماعة .

والفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة — من وجهة نظر الاسلام — وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى ، لها استقلال مقيد ، وحرية مقيدة . والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجماعة المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل التى بين الحلال والحرام . والحلال بين والحرام بين . فالحلال هو ما يمثل النفع الفردى أو النفع العام ، وهو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة . والحرام عكس ذلك ، فهو يمثل الضرر الفردى أو الضرر العام ، وهـو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة . وعلى ذلك فالفرد محدود بحـدود علاقته بالآخرين .. فان تجاوز فى تصرفه وتملكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع . وحينئذ يجب أن يرد الفرد الى دائرة النفع ،

ويحال بينه وبين الاضرار بالآخرين اضرارا ماديا أو أدبيا • وهنا يأتى دور الحكومة والولاية العامة • وقد أوجب الاسلام على المؤمنين طاعة رسالته ، كما أوجب الاحتكام اليها عند النزاع والاختلاف[١٠] قال تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » • (النساء : ٥٩)

* * *

● **وحدة الجماعة :**

كل منا قد انتمى فى وقت أو آخر الى احدى الجماعات الخاملة ، كما أننا خبرنا بالمثل عضوية جماعات ذات أهداف واضحة ووسائل فعالة لتحقيق هذه الأهداف • ويلمس الناس عادة هذه السمة من سمات عمل الجماعة ، فاذا كان للجماعة أهداف واضحة وكانت تسعى لتحقيق هذه الأهداف ، ازداد عادة الرضا الشخصى للأعضاء وارتفعت روحهم المعنوية •

واننا فى الغالب نحتاج الى معرفة العوامل التى تحدد فاعلية الجماعة ، وما يساعدنا على تدعيم وحدة الهدف فى الجماعة ويجعلها أكثر قدرة على تحقيق أهدافها • ويمكن تحديد العوامل المؤدية الى فاعلية الجماعة فى العناصر التالية :

١ — درجة وجود هدف واضح •

٢ — درجة نجاح الهدف الجماعى فى تعبئة طاقات الأعضاء للقيام بالنشاط الجمعى •

٣ — درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالهدف الذى ينبغى أن يوجه نواحى نشاط الجماعة •

---

(١٠) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣) ، ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

٤ — درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالوسائل التى يجب أن تستخدمها الجماعة للوصول الى أهدافها .

٥ — درجة التنسيق بين أوجه نشاط مختلف الأعضاء على النحو الذى تستلزمه أعمال الجماعة .

٦ — مدى حصول الجماعة على الموارد المطلوبة ، سواء أكانت اقتصادية أو ثقافية أو غير ذلك[١١] .

* * *

● الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد :

ان الجماعة لا تكون جماعة الا اذا اتحدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف فى نفس كل فرد من أفرادها تمثلا واضحا .. وبظهور الاسلام قامت الجماعة الاسلامية ، فأى شىء وحد هذه الجماعة ؟ أى هدف التف حوله ومن أجله المسلمون حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى ايجابية الاسلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ .. ان وحدة الهدف فى الجماعة الاسلامية هى عبادة الله الواحد ، قال تعالى فى كتابه الكريم :

« ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل » . (الأنعام : ١٠٢)

وسبيل الله هو سبيل الوحدة اذن بين المسلمين .. فالله غاية الجماعة الاسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

(الصف : ١٠ — ١١)

السبيل الى الله ايمان وعمل .. ايمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله .. ايمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب

---

(١١) محمد طلعت عيسى (ترجمة) ، **تنظيم وقيادة الجماعات .** (القاهرة : دار ومطابع الشعب ، ١٩٦٥) ، ص ١٣٠ — ١٣١

شيء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعة لما جاء به الله ورسوله فوق رغبات النفس واغراء المادة .

ان ايجابية الاسلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله .. وهى ليست فحسب نصحاً للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله فى سلوكهم [١٢] . قال تعالى :

● **« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .** (الحج : ١١)

● **« .. ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى » .** (العلق : ٦ — ٧)

● **« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .** (المعارج : ١٩ — ٢١)

● **« واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله .. »** (الزمر : ٨)

● **« فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » .** (الزمر : ٤٩)

وما أكثر ما تستولى شهوات النفس على الانسان فاذا هو منقاد لها ، أسير فى قيد مطالبها ، لا يرى الحياة الا فى ظل هذا الأسر الذى ألفه وركن اليه . ولم يدرك هذا الانسان أنه خليفة لله على الأرض ، وأنه بحكم هذه الخلافة هو خليفة على نفسه أولا ، وأنه حاكم على نفسه غير محكوم لها ، وأنها قوة من القوى التى وهبها الله له ، وأن عليه أن يسخرها لما فيه خيره فى دنياه وآخرته .

ان رسالة الاسلام هى رسالة توازن وانسجام بين الأفراد ، « فالتوازن » أساس تكوين الجماعة الاسلامية . . وعبادة المسلمين

---

(١٢) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٧

لله هى تنفيذ هذا التوازن والانسجام • ولا شىء أدل على التوازن من « الايثار » ، كما أنه لا شىء أدل على عدم الانسجام من « الأثرة » (الأنانية) • وما أوجبه الاسلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرمه ونهى عن فعله هو عدم الانسجام • فبين الانسان وأخيه الانسان علاقات ، فاذا سيطر الايثار — على كل منهما فى تعامله مع الآخر كانت المحبة وكان التوازن ، واذا تغلبت الأثرة فى علاقاتهما كانت الكراهية والاحتكاك والصراع وعدم الانسجام بينهما •

ان الايثار مجاهدة وجهاد • • مجاهدة فى حمل النفس على أن تدرك حق غيرها فى المشاركة فى الحياة ، وجهاد فى أن تعطى هذا الحق عمليا لغيرها بصورة فيها وفاء للوجود المشترك • فالايثار هو التغلب على تحكم النفس •• تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها • واذا كان الايثار مجاهدة وجهادا ، فالنفس لا تقبل عليه الا اذا كانت لها غاية تتمثلها تمثلا واضحا وتسعد بادراكها ••

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء • ولن يصل انسان ما الى الوحدة فى نفسه وفى جماعته ، والى القوة فى نفسه وفى جماعته ، الا بالتحكم فيما تدعو اليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلبه من عز وجاه متمثلا فى مال أو ولد ، قال تعالى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » • (الكهف : ٤٦)

* * *

● تماسك الجماعـــة :

من المشكلات الرئيسية التى تواجه من يحاولون فهم الجماعات والعمل معها على نحو فعال ، مشكلة الوقوف على كيفية تفسير الاختلافات الكبيرة فى « دوافع التجمع » التى تميز الجماعات بعضها عن البعض الآخر •• لمـــاذا تكون المواظبة غير منتظمة فى جماعة ما بحيث يؤدى ذلك الى موتها ببطء فى حين تظل المواظبة وأنواع النشـــاط وأساليب القيادة فى جماعة أخرى على مستوى عال من الانتظام ؟ ما الذى يجعل

جماعة ما تبدو صحيحة وثابتة بصورة تجعل أعضاءها يؤدون عملا شاقا ، ويبذلون فى سبيلها تضحيات كبيرة ، ويكونون أشد اقبالا على تمجيد فضائلها وابراز محاسنها ، ويبدون أكثر سعادة حينما يكونون معا ، ويكونون أسرع فى التأثير على بعضهم بعضا ، وأسرع فى الاتفاق فيما بينهم •• من أعضاء منظمة أخرى لا حياة فيها ؟ هذه الأعراض وما اليها مما نلاحظه كل يوم ، ولكن لا يزال يعوزنا تفسير كامل لطبيعة تماسك الجماعة ومصادر هذا التماسك (١٣) •

عندما نصف جماعة ما بأنها جماعة متماسكة فاننا نعنى بذلك أن تلك الجماعة يرتبط أعضاؤها بعضهم بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا حول بعض الأمور المشتركة فيما بينهم • وترجع أهمية تماسك الجماعة الى ما يعزى اليه من حيث تهيئة الجو الملائم لنمو روح الفريق ، وزيادة الرضا بين أعضاء الجماعة ، وتنمية الروح المعنوية للأعضاء واقتناعهم بأدوارهم فى الجماعة واستمرار احتفاظهم بعضويتها فى مواجهة المعوقات الداخلية والخارجية • ويعتمد ارتباط الفرد بالجماعة بمجموعتين من العوامل :

الأولى : بعض خصائص الجماعة كأهدافها ، وتنظيمها ، ومركزها فى المجتمع المحلى •

الثانية : حاجة الشخص الى الانتماء ، والتقبل ، والأمن ، وغيرها من الأمور التى يمكن أن تكون الجماعات مجالا لتوفيرها (١٤) •

وتتعدد العوامل التى تؤثر فى تماسك الجماعة أو تفككها ، كما تتداخل بعضها مع البعض الآخر • وتتلخص هذه العوامل فى الآتى (١٥) :

---

(١٣) محمد طلعت عيسى ، **مرجع سابق** ، ص ٣٩

(١٤) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** (ط ٢) • (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٤) ، ص ٢٠٦

(١٥) **المرجع السابق** ، ص ٢٠٧ — ٢١١

١ — هـدف الجماعة :

قد تتجمع الجمـاعة وتلتف حول هدف واحد أو عدة أهداف ، يتطلب كل منها توجيه بعض جهود أعضـاء الجماعة نحو تحقيقه • وكلما كان الهدف واضحا ومحددا فى المجال النفسى لأعضـاء الجماعة كلما كان ادراكهم لذلك الهدف دقيقا واضحا • ومن ناحية أخرى فان الجمـاعة — بحكم تعريفها — يجمعها أصلا هدف مشـترك فيما بين أعضائها • وما لم يجد كل عضو فى الجماعة أن تحقيق أهدافه الذاتية لا يتم الا من خلال تحقيق أهداف الجماعة ، فانه لن يبذل جهدا يذكر لتحقيق أهداف الجماعة ، ولن يشعر بانتماء قوى للجماعة ، وبالتالى فان تماسك الجمـاعة قد يتعرض لبعض العوامل التى تسـاعد على تفكك الجمـاعة •

وكلما كانت الجماعة ناجحة فى تحقيق أهدافها كلما أدى ذلك الى تماسك أعضـائها • فنجاح الجمـاعة أو فشلها يعنى ضمنا نجاحها أو فشلها فى تحقيق الأهداف الذاتية لكل عضو فيها ، مما يمثل حافزا ايجابيا أو سلبيا للتمسك بعضوية الجماعة والانتماء اليها •

٢ — درجة التجانس بين أعضاء الجماعة :

يلعب التجانس دورا أساسيا فى ايجـاد التقارب والتماسك بين أفراد الجمـاعة ؛ فكلما زاد التجانس زادت احتمالات التماسك فى الجماعة والعكس صحيح • ويرجع ذلك الى تزايد القدر المشترك من الأبعاد النفسية فيما بين الأعضـاء •• فحيث ان مظهر التماسك فى الجماعة هو التزامها بمعايير سلوكية معينة خلال تعامل الأفراد بعضهم مع البعض الآخر ، ولـما كانت أنماط السلوك ومعاييره تدور أساسا حول ايمان الأعضاء بقيم مشتركة ، فان التجانس بين الأعضـاء — وهو فى أساسه اتفاق الأعضـاء حول مجموعة معينة من القيم — لابد وأن يؤدى فى النهاية الى زيادة التفاهم والتماسك فيما بينهم • وتمتد احتمالات التجانس لتشـمل أبعادا مثل : الجنس ، والسن ،

والمهنة ، والثقافة ، والمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، والميــول ، والعقيــدة •

٣ ــ مكانة الجماعة بين الجماعات الأخرى :

كلما كانت الجماعة ذات مكانة مرموقة فى نظر الجماعات الأخرى ، كلما كان الانتساب اليها يكسب الفرد مكانة خاصة نتيجة انتمائه اليها ، بما يؤدى الى توحد الفرد مع الجماعة ، وبذلك يزداد تماسك الجماعة •

٤ ــ حجم الجمــاعة :

كلما ازداد حجم الجماعة كلما قلت احتمالات التعامل والتفاعل بين أفرادها وجها لوجه • ومن المعروف أن كفاية الاتصال بين أعضــاء الجمــاعة كفيلة بزيادة التفاهم المشــترك وأدعى الى تقارب المجال الادراكى للأعضاء • ومن ناحية أخرى فان زيادة حجم الجماعة يتيح فرصة أكبر لزيادة التباعد الاجتماعى والنفسى فيما بين أعضاء الجماعة ، ومن ثم تضعف القوى التى تعمل على تماسك الجماعة وتزداد آثار القوى التى تؤدى الى التفكك •

٥ ــ درجة استقرار العضوية فى الجماعة :

المقصود بذلك هو سرعة الانضمام والانفصال فى عضوية الجماعة • فالمألوف أن يلتزم أعضاء الجماعة بمعايير وقيم معينة مشتركة للجماعة بحيث تصبح ممثلة فى معايير الفرد وقيمه الى درجة أن يعتبرها معاييره وقيمه الخاصة • ويستغرق امتصاص الفرد لهذه القيم والمعايير بعض الوقت حتى تصبح جزءا من مكونات شخصيته • فانفصال بعض قدامى الأعضاء وانضمام أعضاء جدد يعنى حاجة الجماعة لمزيد من الوقت حتى يتعلم الأعضاء الجدد تلك القيم والمعايير لتعويض الجماعة عن الأعضاء الذين انفصلوا عنها • لهذا يلاحظ أن زيادة معدل الدوران فى عضوية الجماعة يمثل تهديدا لاستمرار تماسك الجماعة ، مما يؤدى الى تفككها فى بعض الظروف •

٦ ــ نوع التعامل السائد بين الأفراد :

لما كانت عضوية الفرد فى جماعة معينة تستلزم قيامه بأعباء معينة ، ولما كانت الأدوار المختلفة فى الجماعة الواحدة مترابطة ، فان نوع التعامل الذى يسود فيما بين الأعضاء له أثر كبير على درجة تماسك الجماعة • فاذا كان الطابع السائد للتعامل السائد بين الأعضاء هو التنافس ، فان أثر ذلك على درجة تماسك الجماعة يختلف تماما عما اذا كان الطابع السائد للتعامل هو التعاون • وعلى ذلك فكثيرا ما تكون طبيعة العمل المشترك الذى تؤديه الجماعة ، وما يفرضه ذلك على نمط العلاقات السائدة بين أفرادها ، سببا فى زيادة التماسك أو التفكك بين الأعضاء ، كنتيجة طبيعية لنوع العلاقات السائدة بين الأعضاء •

٧ ــ الضغوط الخارجية :

لما كان أساس تكوين الجماعة هو القيام بعمل مشترك ، ولما كانت المحافظة على البقاء هى احدى الوظائف الأساسية للجماعة ، لذلك فان تعرض الجماعة لظروف أو ضغوط خارجية مهددة يؤدى الى زيادة التماسك بين الأعضاء • وكلما أدرك الفرد أن اشباع حاجاته وتحقيقها مرتبط ببقاء الجماعة ، وأن بقاء الجماعة مهدد من خارجها ، كلما ازداد تماسك أعضاء الجماعة •

٨ ــ توافق متطلبات الجماعة مع امكانات الفرد :

لما كان قيام الفرد بأعباء دوره ومتطلباته فى الجماعة يستلزم منه بذل جهود معينة ، فان تناسب ما يقوم به من أعباء مع قدراته وامكاناته شرط أساسى لاحتفاظه بعضوية الجماعة • وفى حالة ما اذا كانت تلك المتطلبات تشكل خبرات غير سارة أو عبئا ينوء الفرد عن تحمله وتعجز امكاناته عن الوفاء بها ، فان استمراره فى عضوية الجماعة يشعره دائما بالاحباط والفشل ولا يغريه على الاحتفاظ بعضوية الجماعة •

٩ — مدى شعور الفرد بعدالة ما تفرضه عليه الجماعة :

تتمثل عدالة ما تفرضه الجماعة على الفرد فى ناحيتين أساسيتين : الأولى ، عدالة ما تفرضه الجماعة على العضو من أعباء بالنسبة لما تمنحه له من حوافز ، والثانية ، عدالة ما تفرضه عليه الجماعة بالنسبة لما تفرضه على غيره من الأعضاء • ففى الظروف العادية بالنسبة للفرد تزداد جاذبية الجماعة للفرد وبالتالى تمسكه بعضويتها وانتمائه اليها ، كلما ازداد احساسه بعدالة الجماعة فى هذه النواحى •

والخلاصة أن تماسك الجماعة يمكن أن يزداد كلما أتيحت فرص أفضل لاشباع حاجات الأفراد • وسوف تزداد جاذبية الجماعة كلما تمكنت من أن تهيىء لأعضائها درجة أفضل من المكانة والقبول وأن تهيىء فرص قيام علاقات تعاونية وتفاعل على درجة أعلى من الحرية • ويمكن أن يؤدى الهجوم الخارجى الى جعل الجماعة أكثر تماسكا • ومن الواضح أن التماسك لا يزداد — عندما تتعرض الجماعة للهجوم — الا اذا كانت الجماعة تعتبر مصدرا للشعور بالأمن • وعندما يظهر الجمهور الخارجى تقديرا مناسبا للجماعة فمن الواضح أنها تزداد تماسكا ، وينشأ هذا عن ادراك أعضاء الجماعة بأن العضوية تسهم فى رفع المكانة الشخصية لأعضائها ••

ويبدو أن ميزان القوى التى تؤدى الى تماسك الجماعة وتلك التى تؤدى الى تفككها فى تذبذب مستمر • وعندما يتذبذب الميزان بدرجة كبيرة فان دوران العضوية سوف يكون كبيرا ، واذا كانت فاعلية الجماعة تشجع الجانب السلبى لغالبية الأعضاء فان الجماعة سوف تتفكك دون شك •

ولقد قامت الجماعة الاسلامية على الأسس الآتية :

١ — أن تتجه عبادتها الى معبود واحد ، قال تعالى :

« **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ••** » • (النساء : ٣٦)

٢ — أن تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » . (البقرة : ٢٠٨)

٣ — اذا هوجمت من جماعة أخرى يجب عليها ألا تستكين لهذا الهجوم :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » . (البقرة : ١٩٠)

واذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء بمثله ، قال تعالى :

« .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . (البقرة : ١٩٤)

هذه هى تعاليم الاسلام فى شأن قيام جماعة المسلمين فى علاقاتها مع الجماعات الأخرى . ان ما أتى به الاسلام فى شأن تماسك الجماعة وبقائها صلبة قوية ، ينبثق أساسا من ذات الايمان بالله ، ويعود أغلبه الى الجانب الروحى فى الانسان(١٦) .

فالايمان بالله — لا غيره — هو الذى ربط بين الفرد وأخيه فى الجماعة الاسلامية . وبناء على ذلك يجب ألا يهجر المؤمن بولائه مؤمنا آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء وهذا الاخلاص الى من هو عدو لهما معا . قال تعالى فى محكم كتابه :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير » . (آل عمران : ٢٨)

وتوضح هذه الآية الكريمة الى أى مدى حرص الاسلام على تماسك الجماعة الاسلامية وبقائها قوية ، بعد أن قامت وأصبحت لها شخصيتها .. ان تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الفرد والجماعة أقوى من أى عامل آخر سواه . فاذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره من

---

(١٦) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٩ .

أعضاء الجماعة ، كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة والعزلة بينه وبين غيره • وعلى العكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك للجماعة التى قويت الصلات الروحية فيما بين أفرادها •

وولاء المؤمن للمؤمن — الذى يدعو اليه القرآن الكريم هو أكثر من صلة نفسية وأكبر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم التنافر بين فرد وآخر • ان هذا الولاء هو الاخلاص فى العلاقة ، هو ايثار الصديق لصديقه ، هو الاحساس القوى بالكيان المشترك للاثنين معا •• وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية هو فى واقع الأمر ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون ، كما فى قوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض •• » •
(التوبة : ٧١)

وكما عبر عنه فى الآية السابقة :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين •• » •

ان الجماعة الاسلامية لم تقم بالأمس لتفنى اليوم أو غداً •• ان قيامها كان نتيجة لرسالة من الله ، وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالايمان بالله ، قال تعالى :

« •• ولينصرن الله من ينصره ، أن الله لقوى عزيز » •
(الحج : ٤٠)

***

الشعور بالأمن والطمأنينة

سكينة النفس — بلا ريب — هى الينبوع الأول للسعادة •• ولكن كيف السبيل اليها اذا كانت شيئا لا يثمره الذكاء ، ولا العلم ، ولا الصحة والقوة ، ولا المال والغنى ، ولا الشهرة والجاه ، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية ؟

اننا نجيب مطمئنين : أن للسكينة مصدرا واحدا — وليس سواه ، هو الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، الايمان الصادق العميق ، الذى لا يكدره شك أو يفسده قلق أو نفاق •• هــذا ما يشهد به الواقع المـاثل ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل انسان مدرك بصير •• فى نفسه وفيمن حوله •

ولقد علمتنا الحيـاة أن أكثر الناس قلقا وضيقا واضطرابا ، وشعورا بالضياع ، هم المحرومون من نعمة الايمان واليقين •• ان حياتهم لا طعم لها ولا مذاق ، وان حفلت بالملذات ، لأنهم لا يدركون لها معنى ، ولا يعرفون لها هدفا ، ولا يفقهون لها سرا • فكيف يظفرون مع هــذا بسكينة النفس أو انشراح الصدر ؟

ان هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الايمان ، وشجرة التوحيد الطيبة التى « **تؤتى أكلها كل حين باذن ربها** » •• فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين ليثبتوا اذا اضطرب الناس ، ويرضوا اذا سخط الناس ، ويوقنوا اذا شك الناس ، ويصبروا اذا جزع الناس ، ويحلموا اذا طاش الناس •

هــذه السكينة هى التى عمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة ، فلم يعره هم ولا حزن ، ولم يستبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولا قلق • قال تعـالى :

« •• فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه •• »

(التوبة : ٤٠)

هــذه السكينة روح من الله ونور ، يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنــده القلق ، ويستروح به المتعب ، ويقوى به الضعيف ، ويهتدى به الحائر •

* * *

● **أسباب السكينة لدى المؤمن :**

قد يسأل سائل : لمـاذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس وطمأنينة القلب ؟ ولمـاذا لا يجد الانسان السكينة فى العلم والثقافة

والفلسـفة ، وفيما أنتجه التقدم العلمى من وسـائل وأدوات يسرت العيش وجملت الحياة ؟

والجواب عن ذلك يتلخص فى النقاط الآتية(١٧) :

١ — استجابة المؤمن لنداء الفطرة :

ان أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدي الى فطرته التى فطره الله عليها ، وهى فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله . فعاش المؤمن مع فطرته فى سلام ووئام . ان فى فطرة الانسان فراغا لا يملؤه علم أو ثقافة أو فلسفة ، وانما يملؤه الايمان بالله جلا وعلا . وستظل الفطرة الانسـانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد طريقها الى الله ، وتؤمن به ، وتتوجه اليه .. هناك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف ، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق . ولقد قال ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » :

« فى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله .

وفيه وحشة لا يزيلها الا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق لا يسكنه الا الاجتماع عليه ، والفرار اليه .

وفيه نيران حسرات لا يطفئها الا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها الا محبته والانابة اليـه ، ودوام ذكره ، وصدق الاخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا » .

* * *

٢ — اهتداء المؤمن الى سر وجوده :

ان فى أعماق كل انسان أصواتا خفية تناديه ، وأسئلة تلح عليه منتظرة الجواب الذى يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس : « ما العالم ؟

---

(١٧) يوسف القرضاوى ، **الايمـان والحيـاة** (ط ٧) . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠) ، ص ٧٧ — ١٠٠ .

ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هـذه الحياة ؟ » •• هـذه الأسئلة التى ألحت على الانسان منذ خلق ، وستظل تلح عليه الى أن تطوى صفحة الحياة ، لم تجد — ولن تجد — لها أجوبة شـافية الا فى الدين • فالدين وحده هو الذى يحل عقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذى يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضى الفطرة ، ويشفى الصدور •

والاسلام — خاصة — خير دين أجاب عن هـذه الأسئلة اجابة شافية ، ترضى الفطرة النيرة والعقل السليم ، بل أعلن القرآن الكريم أن هـذا الدين هو الفطرة الأصيلة نفسها • قال تعـالى :

« **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها** •• »
(الروم : ٣٠)

تقول الفطرة والعقل : ان الناس لم يخلقوا من غير شىء ، ولم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يخلقوا مما حولهم ، فيقول القرآن الكريم :
« **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون • أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون** » • (الطور : ٣٥ — ٣٦)

وتقول الفطرة والعقل : لابد — اذن — من خالق لهذا الانسان العجيب ، ولهذا الكون العريض ، ولابد أن يكون هـذا الخالق واسع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشيئة ، عظيم المقدرة • يقول القرآن :

« **ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون • كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون • الله الذى جعـل لكم الأرض قرارا والسـماء بناء وصوركم فأحسن صـوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين** » •
(غافر : ٦٢ — ٦٤)

وتقول الفطرة والعقل : ان هـذا الخالق الحكيم لابد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ووضع الانسان فيه غاية وحكمة ، وتعالت حكمته

أن يكون خلق هـذا كله عبثا . وأن لهذا الانسان فى الوجود رسالة ، وأن وراء هـذه الحياة الدنيا حياة أخرى هى الغاية واليها المنتهى ، يجزى فيها المحسن باحسانه والمسىء باساءته ، حتى لا يستوى الخبيث والطيب ، وهذا ما تقتضيه الحكمة . وأن لهذا الخالق العظيم — بحكم خلقه لعباده وامدادهم بنعم لا تحصى — حقا عليهم : بأن يعرف فلا يجحد ، ويشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به . وفى هـذا المجال يقول القرآن الكريم :

● **« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » .** (الدخان : ٣٨ — ٣٩)

● **« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النـار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .**

(سورة ص : ٢٧ — ٢٨)

● **« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون » .**

(المؤمنون : ١١٥)

● **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسـماء بناء وأنزل من السـماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .** (البقرة : ٢١ — ٢٢)

● **« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلمـوا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكـل شىء علما » .** (الطلاق : ١٢)

● **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » .** (الذاريات : ٥٦ — ٥٧)

* * *

٣ — نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك :

بهذا الايمان الواضح العميق ، سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واسـتراح من البلبلة والحيرة العقلية والنفسـية ، حين عرف مبدأه

ومصيره ، وغايته ومهمته •• بل عرف مبدأ الوجود كله وغايته وهدفه ومنتهاه ، فانحلت عقدة الشك من نفســه ، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته •

لقد عرف أن له رباً — هو رب كل شىء — هو الذى خلقه فسواه ، وكرمه وفضله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وســخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة •• فاطمأن الى ربه ، واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الايمان الى ركن شديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها •

وعرف المؤمن أنه لم يخلق فى هــذه الحياة عبثا ، ولم يترك سدى ، فبعث الله اليه رسله بالبينات ، هداة ومعلمين ، ليهتدى الناس الى الحق ، ويستبينوا معالم الطريق ، ويعرفوا ما يرضى الله فيتبعوه ، وما يسخطه فيتقوه • وعرف المؤمن أنه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله أو معزولا عنه ، انه بايمانه لم يعد وحده • ان هــذا الكون كله معه ، ففطرة هــذا الكون هى الايمان •• هى التسبيح للرب الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى • قال تعــالى :

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » •
(الاسراء : ٤٤)

* * *

٤ — المؤمن يعيش فى معية الله وفى صحبة النبيين والصديقين :

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسى الوبيل ، الذى يفتك بالمحرومين من الايمــان ، ذلك هو مرض الاحساس بالوحدة المقلقة ، فيحس من يتعرض له أن الدنيــا مقفلة عليه ، وأنه يعيش فريدا منعزلا ، وأى احساس أمر من هــذا الاحساس •• ويجمع المختصون على أن هــذا مرض نفسى شديد ، لمــا يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان للثقة بمن حوله • والايمان القوى هو دواء ناجع لهذا المرض ، كما أنه خير وقاية من شره • والمؤمن يعتقد أن الله معه حيثما كان • ان الله تعــالى يقول فى الحديث القدسى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وان تقرب الى شبرا ، تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا ، تقربت اليه باعا . وان أتانى يمشى ، أتيته هرولة » .

(رواه البخارى)

ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

● **« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسـع عليم »** . (البقرة : ١١٥)

● **« وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير »** .

(الحديد : ٤)

● **« .. اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. »** . (التوبة : ٤٠)

والمؤمن لا يشعر أنه فى عزلة عن اخوانه المؤمنين . انهم يعيشون دائمـا فى ضميره ، ويحيون فى فكره ووجدانه .. فهو اذا صلى — ولو منفردا — تحدث باسمهم **« اياك نعبد واياك نستعين »** ، واذا دعا كان دعاؤه باسمهم **« اهـدنا الصراط المسـتقيم »**، ويقـول ما قال الصالحون .

« ... ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان .. » .

(الحشر : ١٠)

والمؤمن يشـعر بأنه يعيش بايمانه وعمله الصالح مع الأنبيـاء والرسل ، ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفى كل عصر ، قال تعـالى :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

(النساء : ٦٩)

* * *

٥ — الرضا واليقين :

ان شعور الانسان بالرضا من أول أسباب السكينة والأمن والاستقرار النفسى ، التى هى سر السعادة • وفى الحديث الشريف : « من سعادة المرء أستخارته ربه ، ورضاه بما قضى ، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » • (رواه البزار)

فالرضا نعمة روحية جزيلة ، يصل اليها من قوى ايمانه بالله وحسن اتصاله به • وقد خاطب الله رسوله بقوله :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » •
(طه : ١٣٠)

وقال رسول الله ﷺ :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » • (رواه أحمد ومسلم والترمذى)

فالمؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله ، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برسالته فى الحياة •• انه يرى نعمة الله فى هبوب الرياح ، وسير السحاب ، وتفجر الأنهار ، وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام الليل ، وتسخير الدواب ، وانبات النبات • قال تعالى :

● **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة •• »** (لقمان : ٢٠)

● **« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •**
(الجاثية : ١٢ — ١٣)

● **« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه**

يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون • سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » •

(يس : ٣٣ — ٣٦)

● **« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لهـا مالكون • وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون » •** (يس : ٧١ — ٧٣)

● **« وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا • وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا • لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا » •** (الفرقان : ٤٧ — ٤٩)

وهكذا يرى المؤمن — بتوجيه كتاب الله له — آثار رحمـة الله ونعمته فى كل شىء حوله ، أما نعمة الله عليه فى شخصه فما أعظمها وما أغزرها • فأولهـا : نعمة الخلق ، وثانيها : نعمـة الانسانية ، وثالثها : نعمة العلم والادراك ، ورابعها : نعمة البيان اللفظى والخطى ، وخامسها : نعمة الرزق ، وسادسها : نعمة الايمان والهداية الى صراط الله المستقيم ، وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة •• وهذا على سـبيل المثال لا الحصر •

وتتفق جميع المدارس الفكرية للعلاج النفسى على أن القلق هو السبب الرئيسى فى نشوء أعراض الأمراض النفسية ، ولكنها تختلف فيما بينها فى تحديد العوامل التى تسبب القلق • وتتفق هذه المدارس أيضا على أن الهدف الرئيسى للعلاج النفسى هو التخلص من القلق ، وبث الشعور بالأمن فى نفس الانسان ، ولكنها تتبع لتحقيق هذا الهدف أساليب علاجية مختلفة •

وتمدنا دراستنا لتاريخ الدين الاسلامى بأدلة عن نجاح الايمان بالله فى شفاء النفس من أمراضها ، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة

والوقاية من الشعور بالقلق وما ينشأ عنه من أمراض نفسية • ومما هو جدير بالملاحظة أن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الاصابة بالمرض النفسى ، أما الايمان بالله اذا ما بث فى نفس الانسان منذ نعومة أظفاره ، فانه يكسبه مناعة ووقاية من الأمراض النفسية[١٨] • وقد وصف القرآن الكريم ما يحدثه الايمان من أمن وطمأنينة فى نفس المؤمن بقوله :

● **« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »** • (الأنعام : ٨٢)

● **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »** • (الرعد : ٢٨)

● **« ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم »** • (التغابن : ١١)

● **« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »** • (البقرة : ١١٢)

● **« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »** •
(فصلت : ٣٠)

* * *

السياسة التعليمية

ان الهدف الاستراتيجى للتربية الاسلامية العربية هو الوصول بالفرد الى الحال الذى يكون فيه مسلما فى الاعتقاد والمشاعر والسلوك ، وعربيا فى القول والاتجاه والاهتمام ، متقنا لمهنته وعمله حسب الأساليب العصرية ، خاضعا فى كل جوانب حياته للاسلام • وينبثق

---

(١٨) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** • (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢) ، ص ٢٤١ — ٢٤٢

من هذا الهدف الاستراتيجى عدة أهـداف اسلامية وعربية ، هى فى حقيقتها وسائل لتحقيقه ، وهى فى ذات الوقت تعبير عن عقيدة الاسلام وتطبيق لشريعته ، وتعبير عن خصائص العروبة وقضاياها واهتماماتها وآمالها •

ولقد فصلت دراسـة قام بها مكتب التربية العربى لدول الخليج لأهداف التعليم والأسس العامة للمناهج ، وفصلت فى أهداف اسلامية نلخصها فيما يأتى(١٩) :

١ ــ معرفة الاسلام معرفة صحيحة خالية من البدع والشوائب ، شاملة لعقيدته وشريعته وخصائصه ومميزاته •

٢ ــ الاحاطة بمبادىء العقيدة الاسـلامية على أساس الدراسة والفكر والاقناع •

٣ ــ تنمية الولاء للاسلام والاعتزاز به والعمل على تحقيق قيمه ومبادئه •

٤ ــ انماء قدرة الفرد على التفكـير السليم والاستنباط العلمى الصحيح ، بتحرره من الخرافات والأوهام والأفكار الفاسدة والتقليد الأعمى من ناحية ؛ وباتباعه قواعد المنهج الصحيح من ناحية أخرى •

٥ ــ انماء الفرد ماديا ومعنويا بتلبية حاجاته الروحية والبدنية وفق شريعة الاسلام التى تحقق التوازن بين الجوانب المادية والروحية وذلك بالعمل على تحقيق النمو الشـامل للفرد نفسيا وعقليا وخلقيا وجسميا واجتماعيا •

٦ ــ انماء الرغبة المعرفية الفطرية عند الأفراد ، وربط العـلم بالعمل والنظرية بالتطبيق •

٧ ــ تقوية وتدعيم الشعور الفطـرى بحب الوالدين وبرهما ، والانتماء الأسرى والوطنى فى اطار تعاليم الاسلام التى توجب أداء واجبات المسلم نحو وطنه والذود عنه •

---

(١٩) فاروق أحمد دسوقى ، **مقومات المجتمع المسلم** • (الاسكندرية دار الدعوة ، ١٩٨٤) ، ص ٨٧ ــ ٨٩ •

٨ ــ غرس وانمــاء روح التعاون على البر والتقــوى وأساليب التضامن والتكافل ، وتعويد الأفراد على التراحم والمودة والايثــار والتضحية .

٩ ــ التدريب والتعويد بالممارسة وبأداء العبادات على مجاهدة النفس ومقاومة الأهواء والشهوات ، وتأسيس ذلك على عقيدة الايمان ، وتقوية الرقابة الذاتية للفرد على أساس الايمان برقابة الله عز وجل والخشية منه .

١٠ ــ نشر أساليب العمل الجماعى وغرس طبيعة الطاعة والانقياد لأولى الأمر ، وذلك فى غير معصية الله عز وجل ، مع تقوية نزعة القيادة المنضبطة بشرع الله عند أصحابها .

١١ ــ تعميق الوعى بحقيقة الصراع الحضارى القائم فى كل آن بين حضارة الاسلام والحضارات الغربية المعاصرة بشقيها الرأسمالى والشيوعى ، وبالصهيونية واسرائيل كرأس حربة موجهة ضد الأمــة الاسلامية . ولقد قص علينا القرآن الكريم وصــايا الآباء للأبناء ، قال تعالى :

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمــه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصــلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » . (لقمان : ١٣ ــ ١٩)

* * *

السياسة الاقتصادية

« الاقتصاد الاسلامى » بعبارة مبسطة هو الذى يوجه النشاط الاقتصادى وينظمه وفقا لأصول الاسلام ومبادئه الاقتصادية . ونخلص من ذلك أن الاقتصاد الاسلامى ذو شقين(٢٠) :

الأول — شق ثابت :

وهو خاص بالمبادىء ، وهو عبارة عن مجموعة الأصول الاقتصادية التى جاءت بها نصوص القرآن والسنة ، ليلتزم بها المسلمون فى كل زمان ومكان ، بغض النظر عن درجة التطور الاقتصادى للمجتمع وأشكال الانتاج السائدة فيه ، ومن قبيل ذلك :

(أ) أصل أن المال مال الله والبشر مستخلفون فيه ، بقوله تعالى :

- **« ولله ما فى السموات وما فى الأرض .. »**

(النجم : ٣١)

- **« .. وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .. »**

(الحديد : ٧)

- **« .. وآتوهم من مال الله الذى آتاكم .. »**

(النور : ٣٣)

(ب) أصل ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع الاسلامى ، بقوله تعالى :

« أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . » (الماعون : ١ — ٣)

وقول رسول الله ﷺ : « من ترك ضياعا فالى وعلى » .

(رواه البخارى ومسلم)

---

(٢٠) محمد شوقى الفنجرى ، **نحو اقتصاد اسلامى** .. (جدة : عكاظ للنشر والتوزيع ، ١٩٨١) ، ص ٤٥ — ٥٠ .

(ج) أصل تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الاسلامى ، بقوله تعالى : « .. **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** .. »
(الحشر : ٧)

بمعنى أنه لا يجوز أن يكون المال متداولا بين فئة قليلة من المجتمع أو أن يستأثر بخيرات المجتمع فئة دون أخرى . وقال رسول الله ﷺ : « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » .
(رواه البخارى ومسلم)

(د) أصل احترام الملكية الخاصة ، بقوله تعالى :

● « .. **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** .. ». (النساء : ٣٢)

● « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** .. » (المائدة : ٣٨)

وقول رسول الله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » . (رواه مسلم)

وقوله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

(رواه البخارى ومسلم)

(هـ) أصل الحرية الاقتصادية المقيدة : وذلك بتحريم أوجه النشاط الاقتصادى التى تتضمن استغلالا أو احتكارا أو ربا ، بقوله تعالى : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** .. » (البقرة : ١٨٨)

وقوله تعالى : « **وأحل الله البيع وحرم الربا** .. »
(البقرة : ٢٧٥)

وقول رسول الله ﷺ : « من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء » . (رواه مسلم وأبو داوود والترمذى)

(و) **أصل التنمية الاقتصادية الشاملة :** بقوله تعالى :

● **« .. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها .. »**

(هود : ٦١)

● **« .. انى جاعل فى الأرض خليفة .. »** (البقرة : ٣٠)

بمعنى آنه — سبحانه — كلفكم بعمارة الأرض ، وأنه — تعالى — جعل الانسان خليفة الله فى أرضه ، وأنه — تعالى — سخر له ما فى السموات والأرض ليستغلها وينعم بخيراتها ويسبح بحمده ، بقوله تعالى :

● **« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه .. »**

(الجاثية : ١٣)

● **« .. فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** . (الجمعة : ١٠)

ولقد بلغ من حرص الاسلام على التنمية الاقتصادية وتعمير الدنيا أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (شتلة) فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر » . (رواه البخارى وأحمد)

(ز) **أصل ترشيد الانفاق :** وذلك بتحريم التبذير ، والحجر على السفهاء الذين يصرفون أموالهم على غير مقتضى العقل ، والنهى الشديد عن الترف والبذخ واعتباره جريمة فى حق المجتمع . قال تعالى :

● **« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين .. »** .

(الاسراء : ٢٧)

● **« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما .. »**

(النساء : ٥)

● **« .. واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين »** .

(هود : ١١٦)

فالأصول الاقتصادية التى وردت بنصوص القرآن والسنة ، هى أصول الهية ، ومن ثم فانه لا يجوز الخلاف حولها ، ولا تقبل التغيير أو التبديل ، ويلتزم بها المسلمون فى كل عصر بغض النظر عن درجة

التطور الاقتصادي أو أشكال الانتاج السائدة في المجتمع . ويلاحظ أن نصوص القرآن والسنة التي وردت في المجال الاقتصادي جاءت عامة ، وتتعلق بالحاجات الأساسية لكل مجتمع ، ومن ثم كانت صالحة لكل زمان ومكان .

***

الثاني ــ شق متغير :

وهو خاص بالتطبيق .. وهو عبارة عن الأساليب والخطط العملية والحلول الاقتصادية ، التي يكشف عنها أئمة الاسلام لاحالة أصول الاسلام ومبادئه الاقتصادية الي واقع مادي يعيش المجتمع في اطاره . ومن قبيل ذلك العمليات التي توصف بأنها ربا ، وبيان مقدار حد الكفاية أو الحد الأدنى للأجور ، واجراءات تحقيق العدالة الاجتماعية أو اعادة التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع ، وبيان مدى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ونطاق الملكية الخاصة والملكية العامة ، وخطط التنمية الاقتصادية .. الخ مما يتسع فيه مجال الاجتهاد وتتعدد فيه صور التطبيق ، والتي يعبر عنها على المستوى الفكري بمصطلح « النظرية أو النظريات الاقتصادية الاسلامية » وعلى المستوى العملي باصطلاح « النظام أو النظم الاقتصادية الاسلامية » .

ونخلص من ذلك أن الاقتصاد الاسلامي « مذهب ونظام » .. « مذهب » من حيث الأصول ، و « نظام » من حيث التطبيق . وأنه ليس في الاسلام سوى مذهب اقتصادي واحد ، هو تلك الأصول الاقتصادية التي جاءت بها نصوص القرآن والسنة . وانما في الاسلام تطبيقات ــ أي نظم اقتصادية اسلامية مختلفة ــ كما أن فيه اجتهادات ــ أي نظريات اقتصادية اسلامية ــ متعددة ، وتختلف هذه التطبيقات أو الاجتهادات باختلاف الزمان والمكان .

***

الفصل الثانى

الدين المعاملة

● مدخـــل :

لقد جدد رسول الاسلام ﷺ الغاية الأولى من بعثته ، والمنهاج المبين فى دعوته بقوله « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. فكان الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة ، وبذل صاحبها جهـداً كبيراً فى نشرها ومد شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم ، وانارة آفاق الكمال أمام أعينهم ، حتى يسعوا اليها على بصيرة .

والعبادات التى شرعت فى الاسلام واعتبرت أركاناً فى الايمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذى يربط الانسان بالغيوب المجهولة ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها .. كلا ، فالفرائض التى ألزم الاسلام بها كل منتسب اليه ، هى تمارين متكررة حتى يعتاد الفرد أن يحيا بأخـــلاق صحيحة سليمة ، وأن يظل مستمسكاً بهـــذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف . والقرآن الكريم والسنة المطهرة . يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق .

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من اقامتها ، فقال تعالى : **« وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »** . (العنكبوت : ٤٥)

فالابعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل ، هو حقيقة الصلاة . وقد جاء فى حديث يرويه النبى ﷺ عن ربه : « انما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم

يبيت مصراً على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » . (رواه البزار)

و « الزكاة » المفروضة ليست فريضة تؤخذ من الجيوب ، بل هى :

أولا — غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات .

وقد نص القرآن الكريم على الغاية من اخراج الزكاة بقـوله :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

(التوبة : ١٠٣)

فتنظيف النفس من أدران النقص ، والتسامى بالمجتمع الى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى .

ومن أجل ذلك وسع النبى ﷺ فى دلالة كلمة « الصدق » التى ينبغى أن يبذلها المسلم فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، واماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » . (رواه البخارى)

وكذلك شرع الاسلام « الصوم » ، فلم ينظر اليه على أنه حرمان مؤقت من الشهوات المحظورة والنزوات المنكودة : فالقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله :

« كتب عليكم الصـيام كما كتب على الـذين من قبلكم لعلـكم تتقون » . (البقرة : ١٨٣)

وفى هذا المعنى قال الرسول ﷺ « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

(رواه البخارى)

وقد يحسب الانسان أن السفر الى البقاع المقدسة — الذى كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الاسلام على القادر — يحسب الانسان

أن أداء فريضة « الحج » من التعبدات الغيبية . وهذا خطأ ، اذ يقول الله تعالى فى الحديث عن هذه الفريضة :

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يأولى الألباب » . (البقرة : ١٩٧)

هذا العرض مجمل لبعض العبادات الأساسية التى أمر بها الاسلام ، وعرفت على أنها أركانه الأصلية ، نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق .. انها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها ، ولكنها تلتقى عند الغاية التى رسمها الرسول ﷺ فى قوله : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فالصلاة والصيام والزكاة والحج هى مدارج الكلام المنشود ، وروافد التطهر الذى يصون الحياة ويعلى شأنها . ولهذه السجايا الكريمة — التى ترتبط بها أو تنشأ عنها — أعطيت منزلة كبيرة فى دين الله ، فاذا لم يستفد المرء منها ما يزكى قلبه ، وينقى لبه ، ويهذب بالله وبالناس صلته ، فقد هوى [(١)] . يقول الله عز وجل فى محكم كتابه الكريم :

« انه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » .
(طه : ٧٤ — ٧٦)

* * *

● **لنا فى رسول أسوة حسنة :**

لقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا برسول الله ﷺ فى طيب شمائله وعريق خلاله ، فقال تعالى :

---

(١) محمد الغزالى ، **خلق المسلم** (ط ٨) . (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤) ، ص ٥ — ٧

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجـوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » • (الأحزاب : ٢١)

كان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم • ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه •• يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه • من جالسه أو قاربه لحاجة صابره ، حتى يكون هو المنصرف عنه • ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول •• وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء •

وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجـانب • • ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه •• وكان يخالط أصحابه ، ويمازحهم ويجاريهم ويلاعب صبيانهم • ويجيب دعوة الحر والعبد والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر • وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم •

وكان عليه الصلاة والسلام كثير السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة • وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه فصلا ، لا فضول فيه ولا تقصير • ومجلسه كان مجلس خير وحلم وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تخدش فيـه الحرم • اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، واذا مشى مشى مجتمعاً ، يعرف فى مشيته أنه غير ضجر ولا كسلان •

لقد سيقت اليه الدنيا بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها فأعرض عن زهرتها ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله •

* * *

الانسان بين الخير والشر

الاسلام — كسائر رسالات السماء يعتمد فى اصلاحه العام على تهذيب النفس البشرية/الانسانية قبل كل شىء •• فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل فى أعماقها ، وغرس تعاليمه فى جوهرها حتى تستحيل

جزءاً منها .. وما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين الا لأن « النفس البشرية » كانت موضوع عملها ، ومحور نشاطها . فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فى مضطرب الحياة المتحركة ، ولا ألواناً مفتعلة بهتت على مر الأيام .. ولقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس ، فأصبحت هذه المبادىء قوة تهيمن على وساوس الطبيعـة البشرية ، وتتحكم فى اتجاهاتها .

وقد ذكرت « النفس » فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات .

فقوة الدوافع الفطرية/الغريزية تقابل « النفس الأمارة بالسوء » :

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » .

(يوسف : ٥٣)

وقوة النفس الداعية تقابل « النفس الملهمة » :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ٧ — ١٠)

وقوة الضمير تقابل « النفس اللوامة » ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقروناً بيوم القيامـة :

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

(القيامة : ١ — ٢)

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الأعذار :

« بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » .

(القيامة : ١٤ — ١٥)

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » . (الفجر : ٢٧ — ٣٠)

والاسلام — فى علاجه للنفس ابتغاء اصلاحها — ينظر اليها من ناحيتين : الأولى ، أن فيها فطرا طيبة ، تهفو الى الخير ، وتسر بادراكه ،

وتأسى للشر ، وتحزن من ارتكابه ، وترى فى الحق امتداد وجودها وصحة حياتها .. والثانية ، أن فيها — الى جوار ذلك — نزعات طائشة ، تشرد بها عن سواء السبيل ، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر ، ويهوى بها الى منحدر سحيق .

ولقد عمل الاسلام على اسداء المعونة الكاملة للانسان ، كى يدعم فطرته ويجلى أشقها ويسير على هديها ، وكى يتخلص — كذلك — من وساوس الاثم التى تراوده وتحاول السقوط به . وقد وصف الاسلام نفسه بأنه دين الفطرة الخالصة من هذه الشوائب كلها ، فقال تعالى فى محكم كتابه الكريم :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
(الروم : ٣٠)

وحيث يصف القرآن الانسان بالضعف والتردد والأثرة ، يذكر أن التخلص من هذه الرذائل هو عن طريق الدين ووصاياه فحسب :

« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين » .
(المعارج : ١٩ — ٢٦)

ان الاسلام يحترم الفطرة الخاصة ، ويرى تعاليمه صدى لها ، ويحذر الأهواء الجامحة ، ويقيم السدود فى وجهها . والعبادات التى أمر بها هى تدعيم للفطرة ، وترويض للهوى . ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدى رسالتها الا اذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالى والمسلك القويم (٢) :

« لقـــد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أســـفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . (التين : ٤ — ٦)

***

---

(٢) **المرجع السابق** : ص ١٩ — ٢٥

القيم والأخـــلاق فى المعاملة

ان الأخلاق فى الاسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الانسانية .. روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو انفعالية ، فردية أو اجتماعيـــة .. الا رسمت له المنهج الأمثل للســـلوك الرفيع القويم • وفيما يلى أمثلة لهذا الشمول فى مجال الفرد والمجتمع :

١ — ان من أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه :

(أ) جســـما له ضروراته وحاجاته ، مثـــل قـــول الله تعالى :

« **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** » • (الأعراف : ٣١)

وقول الرسول ﷺ : « أن لبدنك عليك حقاً » •

(رواه الشيخان)

(ب) وعقلا له مواهبه وآفاقه ، يقول القرآن الكريم :

« **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** .. » •

(يونس : ١٠١)

« **قل انمـــا أعظكم بواحـــدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** » • (سبأ : ٤٦)

(جـ) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها ، يقول تعالى :

« **ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها** » • (الشمس : ٧ — ١٠)

٢ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع :

(أ) فى آدابه ومجاملاته ، مثل :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** » • •

(النور : ٢٧)

(ب) وفى اقتصاده ومعاملاته :

« **ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** » • (المطففين : ١ — ٣)

(ج) وفى سياسته وحكمه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل •• » • (النساء : ٥٨)

وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الاسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها ••

* * *

● الأخلاق الفاضلة فى القرآن والسنة :

يحث القرآن الكريم على التحلى بالأخلاق الفاضلة واتباع الأسلوب القويم ، والابتعاد عن الشر وسوء الخلق •• وسنناقش فيما يلى أهم القيم والمبادىء الخلقية التى تتضمنها المعاملة ، مع الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وتتلخص هذه المبادىء فيما يأتى :

- أدب الحديث •
- التسامح والرحمة •
- الحلم والصفح •
- العدالة •
- الصدق والأمانة •
- الوفاء والاخلاص •
- الصبر •
- الحياء •
- الاخاء •
- الاتحاد والتعاون •

أولا — أدب الحديث :

ان نعمة البيان أجل النعم التى أسبغها الله تعالى على الانسان ، وكرمه بها على سائر الخلق ، قال تعالى :

« الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان » •
(الرحمن : ١ — ٤)

وقد أوضح الاسلام كيف يستفيد الناس من هـذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد على ألسنتهم طوال يومهم طريقاً الى الخير المنشود • وقد عنى الاسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه ، لأن الكلام الصادر عن انسان ما يشير الى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرق الحديث السائدة فى جماعة ما تحكم على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها •

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الاسلام ، هما الصلاة والزكاة :

« قد أفلح المؤمنون • الذين هم فى صلاتهم خاشعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون » •
(المؤمنون : ١ — ٤)

فاذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعود لسانه الجميل من القول • والكلام الطيب العف يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً وله ثماره الطيبة •• فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم ، ويستديم صداقتهم ، ويمنع كيد الشياطين أن يوهن حبالهم ويفسد ذات بينهم • قال تعالى :
« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » • (الاسراء : ٥٣)

وأما حسن الكلام مع الأعـداء فهو يطفىء خصومتهم ، ويكسر حدتهم ، أو على الأقل يوقف تطور الشر • قال تعالى :
« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » • (فصلت : ٣٤)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً ، أو ليصمت » • (متفق عليه)

— وعنه عن النبى صلى ﷺ قال : « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » .

(رواه البخارى)

— وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت يارسـول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

(متفق عليه)

— « أكثر خطايا ابن آدم من لسـانه » .

(رواه الطبرانى والبيهقى)

* * *

ثانيا — التسـامح والرحمة :

الاسلام دين سمح يشجع على الحرية فى التفكير والحرية فى ابداء الرأى ، ويدعو الى تبـادل المودة والتراحم بين بنى البشر . والقرآن الكريم يحثنا على العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، كما يأمرنا أن نصل من قطعنا ونعطى من حرمنا ، قال تعالى :

« .. فاصفح الصفح الجميل » . (الحجر : ٨٥)

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(الأعراف : ١٩٩)

« .. وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » . (النور : ٢٢)

ان هذه الصفات الخلقية التى حثنا الاسلام على التحلى بها هى المثل العليا التى تربط الانسان بأخيه الانسان . فبالتسامح والحلم تدوم الأخوة الصادقة وتقوى الروابط والصلات بين الناس . والمؤمن عزيز النفس يدرك كل الادراك متى يقابل الاساءة بالعفو ومتى يقابل الاساءة بمثلها . قال تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » . (الشورى : ٤٠)

ان الرحمة كمال فى الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الآخرين ويسعى لازالتها ، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى • هى كمال فى الطبيعة لأن تبلد الحس يهوى بالانسان من منزلته الانســانية بل ويجرده من أفضل صفاته ، وهى العاطفة النابضة بالحب والمودة والرحمة والرأفة •

والرحمة فى أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة الخالق عز وجل • فان رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت • فحيثما أشرف شعاع من علمه المحيط بكل شىء انبثق معه شعاع للرحمة الغامرة • ولذلك كان من صلاة الملائكة له سبحانه :

« ربنا وسعت كل شىء رحمــة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » • (غافر : ٧)

وكثير من أســماء الله الحسنى ينبع من معانى الرحمة والكرم والفضل والعفو • وقد جاء فى الحديث القدسى : « ان رحمتى تغلب غضبى » • (رواه البخارى)

ولقد أراد الله أن يمن على العالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف أحزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويأخذ بناصر الضعيف • فأرسل « محمداً » عليه الصلاة والسلام ، وسكب فى قلبه من العلم والحلم ، وفى خلقه من الايناس والبر ، وفى طبعه من السهولة والرفق ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدراً • لذلك قال فيه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك •• » • (آل عمران : ١٥٩)

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هــذه الرحمة الشاملة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

— « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » • (رواه البخارى)

— « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » • (رواه الطبرانى)

— « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » • (رواه أحمد)

— « لا تنزع الرحمة الا من شقى » . (رواه أبو داوود)

والاسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم ، وقد قال الله لرسـوله : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (الأنبياء : ١٠٧)

وسور القرآن كلها مفتتحة بـ : **« بسم الله الرحمن الرحيم »** .

وليست الرحمة حناناً لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام .. انها عاطفة ترعى هـذه الحقوق جميعاً .. فالزجر فى موضعه ، والعقاب فى مكانه ، مطلوب عندما تدعو الحاجة ، كى تستقيم الأمور ويستتب الأمن والنظام .. ان القسوة التى استنكرها الاسلام جفاف فى النفس لا يرتبط بمنطق أو عدالة . انها نزوة تتشـبع من الاساءة والايذاء ، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى .. أما الرحمة فهى أثر من الجمال الالهى الباقى فى طبائع البشر يحدوهم الى البر ، ويهب عليهم فى الأزمات الخانقة ريحاً لطيفة ترطب الحياة وتنعش الصدور .

ونبه الاسلام الى أن هناك أقواماً ينبغى أن يحظوا بأضعاف من الرحمة والعناية :

— من هؤلاء ذوو الأرحام ، قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحم شجنة (قرابة مشتبكة) من الرحمن ، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله » . (رواه الترمذى)

فعلى المسلم أن يؤدى حقوق أقربائه وأن يقوى بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة .. وأجدر الناس وأولاهم بهذه الرحمة هم الوالدان ، قال تعـالى :

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كمـا ربيانى صـغيرا » . (الاسراء : ٢٤)

— وممن تجب الرحمة بهم اليتامى ، فان الاحسان اليهم والبر بهم وكفالة عيشهم وصيانة حقوقهم من أزكى القربات .

فعن أبى هريرة أن رجلا شكا الى رسول الله ﷺ قسوة قلبه • فقال عليه الصلاة والسلام : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » •
(رواه أحمد)

ـ وتجمل الرحمــة مع المرضى وذوى العاهات •• فان هؤلاء المصابين من شأنهم أن يستقبلوا الحياة بوسائل وامكانات منقوصة ، تعجزهم عن المسير فى ركبها وادراك أغراضهم منهــا ، وقد عذرهم الله تعالى فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه :

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » • (الفتح : ١٧)

* * *

ثالثاً ـ الحلم والصفح :

تتفاوت درجات النــاس فى الثبات أمام المثيرات •• فمنهم من تستخفه التوافه فيثور بسرعة ، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقى على وضعها الأليم محتفظاً برجاحة عقله وسماحة خلقه • ومع أن للطباع الأصيلة دخــلا كبيرا فى أنصبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والسماحة ، الا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة الفرد بنفسه وبين أناته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم • فالرجل العظيم حقا كلما حلق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأخطائهم •

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه الى حد الجنون ، عندما لا يملكون زمام أنفسهم ، ويرون أنهم حقروا تحقيرا لا يعالجه الا سفك الدم • فلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله فانه لا يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد ، فالاهانات تسقط على قاذفهــا قبل أن تصل الى مرماها البعيد • وهــذا المعنى يفسر لنا حلم « هود » عليه السلام وهو يستمع الى اجابة قومه بعدما دعاهم الى توحيد الله ، فقالوا :

« .. انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » . (الأعراف : ٦٦ ـــ ٦٨)

والجاهلية التى عالج رسول الله ﷺ محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة : جهالة ضد العلم ، وأخرى ضد الحلم . فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون التوجيه والارشاد ، وأما الأخرى فكف ظلامها يعتمد على كبح النفس ومنع الفساد . فجاء الاسلام ليقيم أركان المجتمع على العدل ، ولن تتحقق هـــذه الغاية الا اذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب . وكثير من النصائح التى أسداها الرسول للعرب تتجه الى هذا الهدف ، حتى اعتبرت مظاهر الطيش والتعـــدى انفلاتا من الاســـلام وانطلاقاً من القيود التى ربط بها الجماعة ، ومن الحديث : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . (رواه مسلم)

ومن الناس من لا يسكت عنه الغضب ، فهو فى ثورة دائمـــة ، وتغنيظ يطبع على وجهه العبوس . اذا مسه أحد ارتعش كالمحموم ، وأنشأ يرغى ويزبد ويلعن ويطعن . والاسلام برىء من كل هذه الخلال الكدرة . واللعن من الخصال السيئة ، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم . بل ان المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره ولو أصابه منه الأذى الشديد . وعلى قدر ما يغبط المسلم نفسه ، ويكظم غيظه ، ويملك قوله ، ويتجاوز الهفوات ، ويرثى للعثرات ، تكون منزلته عند الله . قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء » . (رواه الترمذى)

ومن الآيات الكريمة فى هـــذا المجال :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(الأعراف : ١٩٩)

« .. وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » . (النور : ٢٢)

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » • (فصلت : ٣٤)

« •• والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » •

(آل عمران : ١٣٤)

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون » • (الشورى : ٣٧)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة (الذى يغلب الناس ويصرعهم) انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » • (متفق عليه)

— « اذا غضب أحدكم فليسكت » • (رواه أحمد)

— « قال الله عز وجل : من ذكرنى حين يغضب ذكرته حين أغضب ، ولا أمحقه فيمن أمحق » • (رواه الديلمى)

— عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » • (متفق عليه)

— وعنها أن النبى ﷺ قال : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » • (رواه مسلم)

* * *

رابعاً — العدالة :

الاسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والسلوك ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية • انه دين الوحدة بين القوى الكونية جميعاً ، فهو دين التوحيد •• توحيد الاله ، وتوحيد الأديان جميعاً فى دين الله ، قال تعالى :

« وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » •

(المؤمنون : ٥٢)

وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعات الاسلام وفرائضه ، وحدوده وتوجيهاته ، وآراؤه فى مختلف الشئون السياسية والاقتصادية

والمعاملات . وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات . وحين ندرك هــذه الفكرة الكلية فى طبيعة النظرة الاســلامية للكون والحياة والانسان ، ندرك معهــا الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الاسلام .. فهى قبل كل شىء عدالة انسانية شاملة ، تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات ، والقيم المــادية والمعنوية والروحية . ان الحياة فى نظر الاسلام تراحم وتودد وتعاون وتكافل بين المسلمين على وجه خاص ، وبين أفراد الانسانية على وجه عام .

وعندما يضع الاسلام نظمه وتشريعاته ، ونصائحه وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات عند الانسان ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ، ولكنه يعالج الأثرة ويعالج الشح بالتوجيه وبالتشريع ، فلا يكلف الانسان الا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها ، وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم عن الانسان :

« **وانه لحب الخير لشديد** » . (العاديات : ٨)

« .. **وأحضرت الأنفس الشح** .. » . (النساء : ١٢٨)

« **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمــة ربى اذن لأمسكتم خشيــة الانفاق ، وكان الانسان قتورا** » . (الاسراء : ١٠٠)

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحاً للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيماً أخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى :

« .. **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** .. » . (الحجرات : ١٣)

« .. **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** .. » . (المجادلة : ١١)

« **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خــير عنــد ربك ثواباً وخــير أملا** » (الكهف : ٤٦)

وهكذا يبدو أن الاسلام قد وضع قيماً أخرى ـ غير القيم الاقتصادية ـ يحسب حسابها ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق بين الناس •• فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضاً فيها مع تحقق العدالة الانسانية باتاحة الفرص المتكافئة للجميع ؛ فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود وتعطلها •

ان العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى •• العدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، أى العدالة فى الأقوال والأفعال والسلوك عامة • ويجب على المؤمن أن يقاوم الباطل وأن يناصر الحق بكل ما أوتى من قوه • وليس فى الاسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، كما لا يعرف التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى • يقول تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » • (الحجرات : ١٣)

« •• واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » •

(الأنعام : ١٥٢)

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » • (النحل : ٩٠)

« •• ألا لعنة الله على الظالمين » • (هود : ١٨)

« •• ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » • (غافر : ١٨)

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً » •

(الكهف : ٥٩)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

ـ « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام » • (رواه الطبرانى وأحمد)

ـ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله • ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره » •

(رواه أحمد)

— « لعن الله من رأى مظلوماً فلم ينصره » . (رواه الديلمى)

— « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

— « اذا رأيت أمتى لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم ، فقد تودع منهم » . (رواه الترمذى)

— « دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجراً ، ففجوره على نفسه » (رواه أحمد)

* * *

خامساً — الصدق والأمانة :

ان الاستمساك بالصدق فى كل شىء ، وتحريه فى كل قضية ، والالتجاء اليه فى كل حكم .. دعامة أساسية فى خلق المسلم وصبغة ثابته فى سلوكه . وكذلك كان بناء المجتمع فى الاسلام قائماً على محاربة الظنون ، ونبذ الشائعات ، فان الحقائق وحدها هى التى يجب أن تظهر وتغلب وأن تعتمد فى اقرار العلاقات المختلفة بين الناس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » . (رواه البخارى)

وقال : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » . (رواه الترمذى)

وقد نعى القرآن على أقوام جريهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب ، فقال :

« .. ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . (النجم : ٢٣)

وقال : **« وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »** . (النجم : ٢٨)

ولقد كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها ، فاذا أساء أحد السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطىء ، بدا بعمله هذا — كالأجرب بين الأصحاء ، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من

علته • وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ودقة الأداء وضبط الكلام •• أما الكذب والنفاق والتدليس والافتراء ، فهى أمارات انقطاع الصلة بالدين ، أو هى اتصال بالدين على أســـاوب المدلسين والمفترين ، أى أسلوب الكذابين فى مخالفة الواقع •

ان الكذب رذيلة محضة تنبيء عن تغلغل الفساد فى نفس صاحبها ، وعن سلوك ينشىء الشر ويندفع الى الاثم •• هناك رذائل يلتاث بها الانسان ، تشـــبه الأمراض التى تعرض للبدن ، بل هى حقاً أمراض اجتماعية أو خلقية ، ولا يصح منها الا بعد علاج طويل ، كالخوف الذى يصاب بهالعيابون ، أو الحرص الذى تتقبض به الأيدى • وقد تكون هناك أعذار لمن يشعرون بوسواس الحرص أو الخوف عندما يواجهون مواقف التضحية والفداء •• ولكنه لا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خلقاً ويعيشون به على خديعة الناس •

قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها ، الا الخيانة والكذب » •   (رواه أحمد)

وكلما اتسع نطاق الضرر اثر كذبة يشيعها أفاك جريء كان الوزر عند الله أعظم • وهذا الضرب من الافتراء فاحش فى حقيقته ، وخيم فى نتيجته •ويدخل فى نطاق هذا الافتراء ، سائر ما ابتدعه الجهال ، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها ، عدها العوام ديناً ، وما هى بدين ، ولكنها لهو ولعب •

والمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح ، حاسباً أن مجال اللهـــو لا خطر فيه على أخبار أو اختلاف •• ولكن الاسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك الا فى حدود الصدق المحض ، فان فى الحلال مندوحة عن الحرام ، وفى الحق غناء عن الباطل • والمشاهد أن الناس يطلقون العنان لأخيلتهم فى تلفيق الأضاحيك ولا يحسون حرجاً فى ادارة أحاديث مفتراة على ألسنة خصومهم أو أصدقائهم ليتندروا بها أو يسخروا منها • وقد حرم الدين هذا المسلك تحريماً تاماً ، اذ الحق أن اللهو بالكذب ، كثيراً ما ينتهى الى أحزان وعداوات •

قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له » . (رواه الترمذى)

والاسلام يستلزم من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تصان به حقوق الله وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعى التفريط والاهمال ، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون « أميناً » .. والأمانة واسعة الدلالة ، وهى ترمز الى معان شتى مناطها جميعاً شعور الفرد بتبعته فى كل أمر يوكل اليه ، وادراكه الأكيد بأنه مسئول أمام ربه ، على النحو الذى فصله الحديث النبوى الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » .

(رواه البخارى)

وعن أنس قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ الا قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » . (رواه أحمد)

ومن معانى الأمانة وضع كل شىء فى المكان الجدير به واللائق له ، فلا يسند منصب الا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة الا بالرجل الذى ترفعه كفايته اليها . فالأمانة تقضى بأن نختار للأعمال أحسن الناس قياماً بها ، فاذا ملنا عنه لغيره — لهوى أو مجاملة أو قرابة — فقد ارتكبنا بذلك خيانة فادحة . قال رسول الله ﷺ : « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . (رواه الحاكم)

وجاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة . فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » .

(رواه البخارى)

ومن معانى الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يبذل جهده فى اتمامه على خير وجه . فهذه أمانة

يمجدها الاسلام .. أن يخلص الشخص لعمله وأن يعنى باجادته ، وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه .

ومن الأمانة ألا يستغل الشخص منصبه الذى عين فيه ، للحصـول على منفعة لنفسه أو لذوى قرباه ، فان التشبع من المال العام جريمة . وقد شدد الاسلام فى ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ ، كما شدد فى رفض المكاسب غير المشروعة . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنـده أجر عظيم » . (الأنفال : ٢٧ — ٢٨)

ومن الآيات القرآنية في مجال الصدق والأمانة :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (التوبة : ١١٩)

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم .. » . (الأحزاب : ٢٤)

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها .. » (النساء : ٥٨)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . (المؤمنون : ٨)

« فان أمن بعضكم بعضـا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه .. » (البقرة : ٢٨٣)

ومن الحديث النبوى الشريف : « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . (رواه أحمد وأبو داوود)

— « المستشار مؤتمن » . (رواه الطبرانى)

* * *

سادساً — الوفاء والاخلاص :

اذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه ، واذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه . ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، فيعرف

بين الناس بأن كلمته موثق غليظ لا خوف من نقضها • والوفاء بالعهد يحتاج الى عنصرين ، اذا اكتملا فى النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، وهما قوة الذاكرة ، وقوة العزيمة •• فضعف الذاكرة ، وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء بالعهد • والانسان لتجدد الأحداث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه — يفعل الزمان فعله العجيب فى نفسه ، فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً فى نفسه لا يكاد يظهر • ولهذا فانه يفتقر الى مذكر دائم ليتغلب على النسيان •• فالذكر المطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء • قال تعالى : **« •• وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »** • (الأنعام : ١٥٢)

فاذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه ، يجب أن ينضم الى هذا الذكر عزم مسدد على تنفيذه ، عزم يذلل الأهواء الجامحة ، ويهون الصعاب العارضة ، بحيث يمضى فى سبيل الوفاء بما التزم به مهما تجشم من مشاق وبذل من تضحيات •• وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً فى هذا المضمار ، فان ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال أو الراحة أو الأحبة أو الحياة • وعندما يستجمع الانسان الذهن الواعى والقلب الكبير ، فهو أهل للوفاء •

والعهود التى يرتبط المسلم بها درجات ، فأعلاها مكانة وأقدسها ، العهد الأعظم الذى بين العبد وخالقه •• وأن الله خلق الانسان بقدرته ، ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يعترف بها ، وألا تشرد به المغويات ، فيجهلها أو يجحدها • قال تعالى :

« ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين • وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم » •

(يس : ٦٠ — ٦١)

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الشخص ماضيه لينتفع به فى حاضره ومستقبله ، فاذا كان فى الماضى معسراً ثم أغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فلا يجوز له أن يفصل بين أمسه ويومه بجدار سميك ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً ، ويبنى على غروره بحاضره مسلكاً كله فظاظة وجحود •

فهذا نوع من الغدر ينتهى بصاحبه الى النفاق الممقوت .

والاسلام يوصى باحترام العقود التى تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها ، ويأمر بانفاذ الشروط التى تتضمنها . قال تعالى :

« .. **وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا** » .

(الاسراء : ٣٤)

« **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون** » .

(النحل : ٩١)

ان صلاح النية واخلاص القلب لرب العالمين ، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحت ، فيجعلانه عبادة متقبلة . وان خبث الطوية ، يهبط بالطاعات المحضة ، فيقلبها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها شيئاً ، بعد التعب فى أدائها ، الا الفشل والخسارة . قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو انسان ، الا كان له به صدقة » . (رواه مسلم)

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته ، فان حركاته وسكناته تحتسب خطوات الى مرضاة الله . وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو اليه ، لقلة ماله أو لضعف صحته ، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الاصلاح الى مراتب المصلحين ، والراغب فى الجهاد الى مراتب المجاهدين ، لأن بعد همتهم أرجح لديه من عجز وسائلهم .

حدث فى احدى الغزوات أن تقدم الى رسول الله رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجودوا بأنفسهم فى سبيل الله ، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفى حلوقهم غصة لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قوله عز وجل :

« **ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون** » .

(التوبة : ٩٢)

ولقد نوه النبى ﷺ بايمان أولئك القوم واخلاصهم ، فقال للجيش السائر : « ان أقواماً خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعباً ولا واديا الا وهم معنا ، حبسهم العذر » . (رواه البخارى)

* * *

سابعاً — الصبر :

قال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » .

(رواه مسلم)

اذا استحكمت الأزمات وتعقدت ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . والصبر فضيلة يحتاج اليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولا بد أن يبنى عليه آماله وأعماله .. فيجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بعقل متفتح وقلب لم تعلق به ريبة . كما ينبغى أن يظل موفور الثقة بادى الثبات ، ويبقى موقناً بأن بوادر الصفو لا بد آتية ، وأن من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين . وقد أكد الله سبحانه أن ابتلاء الناس لا محيص عنه ، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة ، فلا تذهلهم المفاجآت ، فقال تعالى : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** » . (محمد : ٣١)

ولا شك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الانسان ، وأدنى الى احكام شئونه ، قال تعالى : « **.. وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور** » . (آل عمران : ١٨٦)

والصبر يعتمد على حقيقتين أساسيتين : الأولى ، تتعلق بطبيعة الحياة الدنيا . . فان الله جعلها دار تمحيص وامتحان ، والفترة التى يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات ، يخرج من امتحان ليدخل فى امتحان آخر قد يغاير الأول مغايرة تامة . كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ، ربما انتهت بمصارعهم ، وليس أمام الفرد الا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر ، وما دامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه .

والحقيقة الثانية تتعلق بطبيعة الايمان •• فالايمان صـلة بين الانسان وبين الخالق سبحانه ، واذا كانت صلات المودة والصداقة بين النـاس لا يعتد بها ولا ينوه بشـأنها الا اذا تأكدت على مر الأيام واختلاف الحوادث ، فكذلك الايمان ، لا بد أن تخضع صلته بالابتلاء الذى يمحصـها ، فاما كشـف عن طيبهـا واما كشف عن زيفهـا • قال الله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » •
(العنكبوت : ٢ — ٣)

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر ، ومن أجلهما يطالب الدين به • ولكن الانسان — ومن عادته تجاهل الحقائق — يدهش الصعاب اذا لاقته ، ويتبرم بالآلام اذا مسته ، ويقوم له من طبعه الهلوع ما يبغض له الصبر ويجعله فى حلقه كريه المذاق • فاذا أحرجه الأمر ، أو نزلت به كارثة ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر • وأولى بالمسـلم أن يدرب نفسه على طـول الانتظار • قال تعالى : **« خلق الانسان من عجل ، سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »** • (الأنبياء : ٣٧)

وفى الحديث النبوى الكريم : « اذا أحب الله قوماً ابتلاهم • فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » •
(رواه الترمذى)

والصبر أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على النوازل • •

فأما الصبر على الطاعة فأساسه أن أركان الاسلام تحتاج فى القيام بها والمداومة عليها الى تحمل ومعاناة •• فالصلاة مثلا ، فريضة متكررة يقوم بها المسلم فى مواعيد محددة ، ويقول الله فيها :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها •• » • (طه : ١٣٢)

« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » .

(البقرة : ٤٥)

والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق ، وقد أقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما :

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

والصبر على المعاصى ، هو عنصر المقاومة للمغريات التى تنبت فى طريق الناس وتبين لهم اقتراف المآثم المحظورة . قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

(رواه مسلم)

والادبار عن الشهوات لا يتأتى الا لصبور ، والصبر هنا أثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم الى ما يرضى الله . قال تعالى :

« .. ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » .

(الأعراف : ١٢٦)

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن فى نفسه أو ماله أو أهله أو مكانته . وتلك كلها أعراض متوقعة ، وهيهات أن تخلو الحياة منها . على أن المسلم اذا احتمى بالله ولجأ اليه صمد أمام الأحداث . ولن تفارق المؤمن رحمة الله ما دام تمسك بدينه فى الأزمات ولا يتزعزع يقينه لدى الشدائد . قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . (البقرة : ١٥٥ — ١٥٧)

* * *

ثامنا — الحياء :

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الانسان ، فهو يكشف عن قيمة ايمانه ومقدار أدبه . وعندما ترى الشخص يتحرج من فعل مالا ينبغى ،

أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه اذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حى الضمير ، نقى المعدن ، طيب العنصر . واذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور ، لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه . وليس له من الحياء وازع يعصمه من اقتراف الآثام وارتكاب الخطايا .

وقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هـذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل . قال رسول الله ﷺ : « ان لكل دين خلقاً ، وخلق الاسلام الحياء » . (رواه مالك)

وكان النبى ﷺ أرق الناس طبعاً ، وأنبلهم سـيرة ، وأعمقهم شعوراً بالواجب ، ونفوراً من الحرام . عن أبى سعيد الخدرى : « كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا رأى شـيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه » . (متفق عليه)

قال رسول الله ﷺ : « ان الله عز وجل اذا أراد أن يهلك عبداً نزع منـه الحياء . فاذا نزع منـه الحياء لم تلقه الا مقيتاً ممقتـاً (مبغضاً) . فاذا لم تلقه الا ممقتاً نزعت منه الأمانة . فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائناً مخوناً ، نزعت منه الرحمة . فاذا نزعت منه الرحمة لم تلقه الا رجيماً ملعناً . فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة (رباط) الاسلام » (رواه ابن ماجه)

وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس وتتبعه لأطوارها ، وكيف تسلم كل مرحلة خبيثة الى أخرى أشد نكراً .. فان الشخص اذا مزق الحجاب عن وجهه ، ولم يتهيب على عمله حساباً ، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم ، مد يد الأذى للناس ، وطغى على كل من يقع فى سلطانه . ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلباً يعطف عليه ، بل انه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها .

وللحياء مواضع يستحب فيها .. فالحياء فى الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العيب ، فان من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غـير عابىء بمواقعها وآثارها .

قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » (رواه أحمد)

ومن الحياء فى الكلام أن يقتصد المسلم فى تحدثه بالمجالس ، فان بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث فى المحافل والاجتماعات ، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كره الاسلام هذا الصنف من الناس . وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء المتشدقين لا تخلو من المبالغة ، لعلل خلقية كان الحياء علاجها الشافى لو أنهم استمسكوا به .

ومن الحياء أن يخجل الانسان من أن يؤثر عنه سوء ، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب بعيدة عن الاشاعات السيئة .. فان الرجل الذى يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير ، والرجل الذى يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيه بقية من شر . وينبغى على الانسان أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، واذا كره أن يراه الناس على نقيصه فليكره أن يرى نفسه على مثلها . ومن ثم كان لزاماً على المسلم أن يبتعد عن الدنايا والنقائص ، ما ظهر منها وما بطن ، سواء خلا بنفسه أو برز الى الناس .

ان الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النبل فى كل عمل يشوبه ، قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش فى شىء الا شانه ، وما كان الحياء فى شىء الا زانه » . (رواه الترمذى)

ومن حياء الانسان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى كل ذى فضل فضله . فللغلام مع من يكبرونه ، وللطالب مع من يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والاحترام والتقديم ، فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته ، ولا أن يسبقهم فى خطوه . وفى الحديث :

« تواضعوا لمن تعلمون منه » . (رواه الطبرانى)

— « اللهم لا يدركنى زمان لا يتبع فيه العليم ، ولا يستحيا فيه الحليم » . (رواه أحمد)

والحياء فى أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عز جل : فنحن

نطعم من خيره ونتنفس فى جوه ، ونندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه ، ان حق الله على عباده عظيم ، ولو قدروه حق قدره لسارعوا الى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم ، ولباعدوا عن السيئات خجلا من مقابلة الخير بالجحود .

عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : انا نستحى من الله يارسول الله — والحمد لله — قال : ليس ذلك .. الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس ما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » . (رواه الترمذى)

وهذه العظة تستوعب كثيراً من آداب الاسلام ومناهج الفضيلة .. فان على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض فى باطل وبصره أن يرمق عورة ، وأذنه أن تسترق سراً . وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام ، ويقنعها بالطيب الميسور . ثم عليه أن يصرف أوقاته فى العمل الصالح ومرضاة الله ، وايثار ما لديه من ثواب ، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة .. فان فعل ذلك عن شعور ويقين بأن الله يرقبه ، ونفور من اقتراف تفريط فى جنب الله ، فقد استحيا من الله حق الحياء .

والحياء بهذا الشمول هو الدين الخالص كله ، فاذا أطلق على طائفة من الأعمال الجميلة فهو جزء من الايمان .

* * *

تاسعا — الاخاء :

ليست هناك دواعى معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتاً متناكرين ، بل ان الدواعى على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض الآخر ، وتمهد لهم مجتمعاً متكافلا تسوده المحبة ، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض . والله عز وجل رد أسباب الناس وأجناسهم الى أبوين اثنين ، ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق . قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » •
(الحجرات : ١٣)

فالتعارف — لا التنافر — أساس العلاقات بين البشر • وكل رابطة توطد هــذا التعارف وتزيح من طريقه العوائق فهى رابطة يجب تدعيمها ، والانتفاع بخصائصها • وليس الاسلام مجرد رابطة تجمع بين عدد من الناس فحسب ، ولكنه جملة الحقائق التى تقر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم ، ثم بين الناس أجمعين • ان الأثرة (الأنانية) آفــة الانسان ، اذا سيطرت نزعتها على شخص محقت خيره ونمت شره ، وحصرته فى نطاق ضيق لا يعرف فيه الا شخصه ، ويصبح متمركزاً حول ذاته ، ولا يهمه شىء من شئون الآخرين • وقد حارب الاسلام هــذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة ، وأفهم الانسان أن الحياة ليست له وحده ، وأنها لا تصلح به وحده • فليعلم أن هناك أناساً مثله ، ان ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده • ان هذا التذكر يخلع المرء من أثرته ، ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه •

ومن حق أخيك عليك أن تكره ضرره ، وأن تبادر الى دفعه عنه ، فان مسه أذى شــاركته الألم ، وأحسست معــه بالحزن • قال رسول الله ﷺ : « مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمــى » • (رواه البخارى)

— « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه • من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة • ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » •
(رواه البخارى ومسلم)

— « ان الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليــوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » • (رواه مسلم)

— « من استعاذ منكم بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفاً فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أن قد كافأتموه » .

(رواه أحمد ، وأبو داوود ، والنسائى)

— « حق الجار ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر أقرضته ، وان أعوز سترته ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذيه بريح قدرك الا أن تغرف له منها » . (رواه الطبرانى)

— « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

(متفق عليه)

ومن حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن اخوانه ظهير له فى السراء والضراء وأنه لا يتحرك وحده فى خضم الحياة ، بل ان قوى المؤمنين تسانده وتشد أزره فى مسيرته . ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة ، فهى نعمة التجانس الروحى والمادى معاً . قال تعالى :

« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً .. » . (آل عمران : ١٠٣)

ورهب الاسلام من يلعب بهم الشيطان ويغريهم بالتطاول على اخوانهم طلبا للاستعلاء فى الأرض ، فبين أن هؤلاء المتطاولين سوف يتضاءلون يوم القيامة ، وعلى قدر ما انتفخوا ينكمشون حتى يصيروا هباء . وفى الحديث : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور رجال يغشاهم الذل من كل مكان » . (رواه الترمذى)

قال تعالى : **« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »** . (غافر : ٦٠)

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض » .

(الأعراف : ١٤٦)

« قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » . (الأعراف : ١٣)

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » . (رواه مسلم)

ومما يمزق أواصر الأخـوة التهكم والازدراء والسـخرية من الآخرين . ان هـذه الأخلاق تنشأ عن جهالة وغفلة . فان من حق الضعيف أن يجد المساندة دون النيل منه ، ومن حق الحائر القلق الملهوف أن يرشد الى الطريق القويم لا التهكم عليه . واذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة فآخر ما يتوقع من أخيه المسلم أن يجعل ذلك مثار تندره واستهزائه . قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .. »** . (الحجرات : ١١)

ومما اتخذه الاسلام لصيانة الأخوة ومحو الفروق المصطنعة ، توكيد التكافؤ فى الدم والتساوى فى الحق ، وأشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل . فلا يفضل أحد أخاه فى الاسلام الا بالتقوى والعمل الصالح . قال رسول الله ﷺ : « اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى : ألا انى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً . فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم الا أن تقولوا : فلان ابن فلان . فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم » . (رواه البيهقى)

وهذا تأكيد لقوله تعالى :

« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » .

(المؤمنون : ١٠١ — ١٠٣)

* * *

عاشراً — الاتحـاد والتعـاون :

تقوم شرائع الاسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا يتجزأ ولا ينفصم من كيان الأمة ، وعضواً موصولا بجسمها لا ينفك عنها ، فهو — طوعا أو كرهاً — يأخذ نصيبه مما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو

وشعور • وقد جاء الخطاب الالهى مقرا هذا الوضع ، فلم يتجه للفرد وحده بالأمر والنهى ، انما تناول الجماعة كلها بالتأديب والارشاد • قال تعــالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده •• » •

(الحج ٧٧ — ٧٨)

فاذا وقف المسلم بين يدى ربه ليتضرع اليه ويناجيه ، لم تجر العبادة على لسانه كعبد منفصل عن اخوانه ، بل كطرف من مجموع متسق مرتبط يقول : **« اياك نعبد واياك نستعين »** • (الفاتحة : ٥)

ثم يســأل الله من خيره وهداه ، فلا يختص نفســه بالدعاء ، بل يطلب رحمة الله له ولغيره ، فيقول : **« اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم »** • (الفاتحة : ٦ — ٧)

ان الله عز وجل لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا •• لقد شرع لهم ديناً واحدا ، وأرسل أنبياءه تترى ليقودوا الناس كافة فى طريق واحد ، وحرم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين وأن يتفرقوا حوله •

بيد أن الناس فى غمرة الحياة واتباع الشهوات تناسوا هذه الوصية الكريمة ، وتنكروا لهذا التراث العظيم ، فانقسم الناس أحزاباً ، وصار كل حزب يكيد للآخر ويتربص به • قال تعالى :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم • وان هــذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون • فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون • فذرهم فى غمرتهم حتى حين » •

(المؤمنون : ٥١ — ٥٤)

وبين الله عز وجل أن اتباع الهوى ومتابعة البغى هو سر هــذا الافتراق الواسع •• والحق أن العلم عندما ينفصل عن الخلق ، ويفارقــه الاخلاص ، يمسى وبالا على أهله وعلى الناس • وقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع ••

وقال تعـالى : « **وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العـلم بغياً بينهم ..** » . (الشورى : ١٤)

فالنظر الى ضراوة العلم عندما يفقد الاخلاص لله والرفق بالعباد ، كيف يثير الفرقة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .. ان اختلاف الأفهام وتضارب الآراء ليس بمستغرب فى الحياة ، ولكن ليس هـذا سبب التقاطع والشقاق . انما يعود سبب الشقاق الى اسهام عوامل أخرى وانضمامها ، تستغل تباين الأفطار والآراء للتنفيس عن أهواء باطنة . ومن ثم ينقلب البحث عن الحقيقة الى ضرب من العناد لا صلة له بالعلم البتة . ولمـا كان هـذا الاختلاف المريب مفسداً لدين الله ودنيا الناس فقد اعتبره الاسلام انفصالا عنه . قال تعالى فى كتابه الكريم محذراً المسلمين من الخلاف فى الدين والتفرق فى فهمه شـيعاً متناحرة كما فعل الأولون :

« **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** » .
(آل عمران : ١٠٥ — ١٠٧)

ان ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الاسلام ، وألزم صفات المسلمين المخلصين . ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقـاء الأمة ، ودوام دولتها ، ونجاح رسالتها . ولئن كانت كلمة التوحيد باب الاسـلام ، فان توحيد الكلمة سر البقاء فيه ، والابقاء على رسالته ، والضمان الأول للقاء الله سبحانه وتعالى بوجه مشرق وصفحة نقية .

ولكى يمتزج المسلم بالمجتمع الذى يحيا فيه شرع الله الجماعـة للصلوات اليومية ورغب فى حضورها وتكثير الخطو اليها ، ثم ألزم أهل الحى أو العشيرة أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة . وبعد هذا دعا الى اجتماع أكبر فى صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء خارج

البلدة ، وأمر الرجال والنساء بالمشاركة فيه اتماما للنفع وزيادة فى الخير .. ثم أذن الى حشد أضخم يضم الشتات من المشرق الى المغرب . ففرض الحج ، وجعل له مكاناً معلوماً وزمانا محدوداً ، حتى يجعل اللقاء بين أجناس المسلمين أمراً محتوماً .

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة ، وكان فى حله وترحاله يوصى بالتجمع والاتحاد ، قال عليه الصلاة والسلام : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فاذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم ».

(رواه مالك)

— « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

(رواه البخارى ومسلم)

وقال تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم »** .

(التوبة : ٧١)

ان الناس اذا لم يجمعهم الحق شعبهم وشتتهم الباطل ، واذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان ، واذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا . لذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة وصفة من لا ايمان لهم . قال رسول الله ﷺ :

« لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(رواه الترمذى)

ان الشقاق يضعف الأمم القوية ، ويميت الأمم الضعيفة ، ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين — بعد انتصارهم فى غزوة « بدر » — أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا أمرهم . ولما تطلعت النفوس للغنائم ، تشتهى حظها وتتنافس على اقتسامها نزل قوله تعالى :

« يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » .

(الأنفال : ١)

ثم أفهمهم أن الاتحاد فى العمل لله هو طريق النصر المحقق . قال تعالى : « **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ..** » . (الأنفال : ٤٦)

وحذرهم من أن يسلكوا فى التكالب على الدنيــا مسلك الذين لا يرجون عند الله ثواباً ، فقال تعالى : « **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط** » . (الأنفال : ٤٧)

ثم تلقى المسلمون فى « أحد » لطمة موجعة أفقدتهم عدداً لا يستهان به من أبطالهم ، وردتهم الى المدينة وهم يعانون الأمرين من خزى الهزيمة وشماتة الكافرين . ولم ذلك ؟ مع أن ايمانهم لم يتزعزع .. ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله . قال تعالى :

« **ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ..** » .
(آل عمران : ١٥٢)

وكان ذلك يعود الى انحلال عرى المسلمين وتفرقهم .

* * *

الفصل الثالث

دين الإنسانية

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هـذا القرن أوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية . فالقرون الماضية لم تلجىء الانسان الى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الكائنات الحية على هـذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى اليها .. كما ألجأه الى ذلك كله القرن العشرون .. وقديما كان الحكماء يحملون شعارهم فى نصيحة الانسان : « اعرف نفسك » .

ــ ما مكان الانسان من الكون كله ؟

ــ ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هـذا النوع الواحد ، أو هـذا النوع الذى يتألف من عـدة أنواع يضمها عنوان « الانسان » ؟

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .

والانسان فى عقيدة القرآن هو المخلوق المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسـماع .. « والانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه [1] ..

* * *

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الانسان فى القرآن** (ط ٢) . (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩) ، ص ٨ ــ ١٢

النظــام الاجتماعى الاســلامى

ان النظام الاجتماعى الاسلامى الذى نشأ وازدهر حتى عم ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، كان يستند الى نظرية اجتماعية اسلامية تنطوى على العناصر الآتيــة (٢) :

١ — امتياز الاسلام بالصفة الانسانية :

لقد انطوى الاسلام منذ يومه الأول على طاقة روحية • ولمــا كانت الروحية الاسلامية طاقة ديناميكية متحركة ، وليست ثابتة ، فانه يمكن القول بأن الدين الاسلامى ينطوى فى ذاته على عوامل التغير الاجتماعى الارتقائى • ولذلك فقد انعكس التغير الاجتماعى الاسلامى على حياة الأفراد والجماعات ، وكذلك على النظم والمنظمات الاجتماعية فى كل جوانبها • ومن هنا ينطوى موضوع علم الاجتماع الاسلامى على ضرورة دراســة التغير الاجتماعى الذى احدثه الاسلام فى الحياة العــامة وفى المعاملات وفى النظم الاجتماعية ، وفى نظم الحكم ، وفى تشريعات الأسرة ، خاصــة وأن التغير الاجتماعى الاسلامى كان تغيرا جذرياً يمس الأوضاع فى حياة الناس ، وأنه لم يكن مستندا الى ما جاء به الكتاب الكريم وحده ، وانما صاحبته السنة التطبيقية التى أصبحت منذ المراحل الأولى للاسلام مصدرا للاسترشاد والتفسير والقياس فى حياة الناس بالمجتمعات •

* * *

٢ — امتياز الاسلام بالعمومية الاجتماعية :

لقد كان الاســلام منذ يومه الأول دينا ينطوى فى ذاته على « العمومية » ، وتلك العمومية من أهم خصائص الظواهر الاجتماعية •

---

(٢) زيدان عبد الباقى • **علم الاجتماع الاسلامى** • (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٨٤) ، ص ٢ — ٢٤ •

فقد كان الاسلام دين « دعوة » له رســـالة يجب على المسلم أن يبلغها ، وأن يبشر بها غير المسلمين • وهو من هـــذه الناحية يختلف عن ديانات أخرى سماوية مثل اليهودية التى لم يهتم أصحابها بنشرها بين الناس ، وان كانوا هم قد انتشروا فى الأرض محتفظين بعقيدتهم لأنفسهم •

والجديد فى الدين الاسلامى منذ نشأته هو العمل على التحول الشامل بكل أجزاء المجتمع ، مع أخضاع الجماعات البشرية الى نظام موحد والارتفاع عن مستوى المتناقضات السلالية والعنصرية « كلكم لآدم وآدم من تراب » • ففى اطار الوحدة الدينية يمكن أن تتعدد العادات وتتنوع التقاليد ، كما يمكن أن نجد أجناسا ولهجات وطبائع وسلالات مختلفة تربطها ديانة واحدة • أى أن الغاية المثلى من الدين الاسلامى هى الانتقال من المراحل الجزئية الى مراحل التجانس والاطار الفكرى الموحد الذى يمكن أن تزدهر فى ظلاله مختلف الآراء مهما تنوعت وتباينت • فهذا الدين هو فى الواقع دليل عمل وأسلوب لاحداث التغير الاجتماعى والارتقاء بالجماعات البشرية • وبالتالى فان القرآن الكريم يقف على قمة الأدوات الرئيسية للتغير الاجتماعى الارتقائى ، وبالتالى فان المجتمع الاسلامى يتميز على بقية المجتمعات الأخرى غير الاسلامية بتلك العلاقة القوية التى تربطهم بكتابهم الكريم الذى ينطوى على ثورة اجتماعية ارتقائية لا مثيل لها على الاطلاق •

ومما يؤكد عمومية الدين الاسلامى أيضا أن الاسلام جاء عاما — حتى لأصحاب الديانات السماوية السابقة • فالاسلام — فى لغة القرآن — ليس اسما لدين خاص ، وانما هو اسم للدين العام الذى هتف به كل الأنبياء ، وانتسب اليه كل الأنبياء ومن تبعهم •• فهكذا رأينا نوحا يقول لقومه : **« وأمرت أن أكون من المسلمين »** • (يونس : ٧٢)

وأوصى يعقوب بنيه بقوله : **« •• فلا تموتن الا وأنتم مسلمون »** •
(البقرة : ١٣٢)

واستمع يعقوب الى بنيه يقولون :

« •• نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الهاً واحدا ونحن له مسلمون » • (البقرة : ١٣٣)

وقال موسى لقومه :

« يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » .
(يونس : ٨٤)

وقال الحواريون لعيسى :

« .. آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » . (آل عمران : ٥٢)

وبصفة عامة نجد الاســلام شعارا عاما يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور الى عصر النبوة المحمدية . ثم نرى أن القرآن الكريم يجمع مختلف هــذه القضايا فى قضية واحدة ، يوجهها الى محمد وقومه ، موضحا لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديدا ، وانما هو دين الأنبياء من قبلهم ، لقوله تعالى :

« شرع لكــم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينــا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيــه .. » . (الشورى : ١٣)

وكذلك نراه حين يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى سلك واحد ، ويجعل منهم جميعا أمة واحدة لها اله واحد ، كما أن لها شريعة واحدة ، لقوله تعــالى :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .
(الأنبياء : ٩٢)

* * *

٣ ــ امتياز الاسلام بالجاذبية الاجتماعية :

ترجع جاذبية الدين الاسلامى الى « بساطته » و « واقعيته » ، وبعده عن التعقيد . وهو فى الوقت ذاته دين « مباشر » يتصل فيه العبد بخالقه دون وساطات كهنية أو كنسية . والبساطة فى العقيدة الاسلامية تشمل مختلف العبادات والمعاملات ، وما نظن أن دينا يطلب من الفرد شهادة أبسط من شهادة الاسلام فى عمقها وجلالها « لا اله

الا الله ، محمد رسول الله » • وقد نزل الاسلام بهذه الشهادة التى تصوغ أعمق فكرة بأبسط عبارة ، كما نزل بآيات محكمات وتشريعات ، تكملها سنة قائمة على البساطة البعيدة عن كل تعقيد • ومن هنا كان الموقف على عتبة الاسلام موقفا ميسورا « وجذابا » ، ولا غرو فى ذلك ، فقد كانت القاعدة الثابتة لدى من يدعو الى الاسلام أن الدين يسر لا عسر • ومن هنا كان الاطمئنان الروحى والفكرى أول ما يستشعره من يدخل فى دين الاسلام ، لاسيما وأن اعتناق العقيدة الاسلامية يأتى مباشرة ودون وساطة أو وكالة عن طريق كاهن أو كنيسة • ان التكليف فى الاســـلام جاء فرديا ، وان روعيت فيه ظروف الفرد من الناحية الانسانية • ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن هـــذه الجاذبية المستمدة من البساطة قد يسرت انتشار الاســـلام ، ومهدت لاحتفاظه بطابعه الاجتماعى الموحد — ولو من الناحية الروحية الدينية • غير أنها لم تنته بالضرورة الى ذلك القـــدر من « المرونة » الذى قد يشوه التطبيق ، ويرجع ذلك الى أن القرآن الكـــريم — كوعاء للعقيدة — حفظها على مر العصور ، وأضفى عليهـــا صفة العمومية ، ولم يسمح للبساطة أن تنقلب الى مرونة مشوهة •

وتبدو تلك الجاذبية واضـــحة فى الربط بين الضرورتين الدينية والاجتماعية باعتبارهما من الضرورات الأساسية لحياة الانســـان •• ذلك أن الانسان كائن اجتماعى ، أى اجتماعى بطبعه ، ولا يستطيع الانسان أن يعيش بمفرده فى هـــذا الكون ، حيث ان الشعور بالانتماء من الحاجات الأساسية للانسان • وكذلك يوصف الانسان بأنه كائن متدين ، بمعنى أنه لابد أن ينتمى الى دين ما ، ويمكن القول بأن الانسان متدين بطبعه ، وأن الطبيعة الدينية جزء من طبيعته الكلية ، فالدين ضرورة للانسان • ولولا جاذبية الدين ما استطاع الانسان أن يوفق بين الضرورتين الدينية والاجتماعية ، فالضرورة الدينية تتميز بالثبات والاستقرار ، بينما تتميز الضرورة الاجتماعية بالتغير والتطور • بمعنى أن الانسان بمقتضى جاذبية الدين الى نفسه استطاع أن يواجه عالمـــا جديدا متغيرا ومتطورا ، وهو يعتنق دين الاسلام الثابت المستقر •

* * *

٤ ـ امتياز الدين الاسلامي بالموضوعية :

امتاز الدين الاسلامي على غيره بالبعد عن الجمود وبالدعوة الى الاجتهاد ، فهو دين رحب يقبل الاجتهاد ، بل ويدعو اليه فى حدود أصول العقيدة ، والى جانب ذلك فهو يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الحق • ومن هنا كانت الدعوة الى التأمل والمعرفة والاستبصار من أسس الدعوة الاسلامية ، وكان التفتح العقلى البصير مفتاحا للدعوة الاجتماعية الموضوعية فى الاسلام •• ذلك أنه عندما خرج المسلمون من بلادهم ، وتعرفوا على حضارات أخرى لم يجانبوها لمجرد أنها حضارات سابقة ، وانما أخذوا منها ما وجدوا فيه الخير ولم يتعارض مع أسس الشريعة الاسلامية ومبادئها • كما أن الاسلام ، وقد جاء فى بيئته الأولى ختاما للرسالات السماوية ، قد أعاد للفكر التوحيدى فى المشرق أصالته ، واستطاع بهذه الاعادة أن يجلى بعض معالم الفكر الاجتماعى الاسلامى فى تلك المنطقة ، وأن ينطلق به الى الشرق والغرب والى ما وراء البحار ، وكان الاسلام فى ذلك كله باحثا ومنقبا ومجليا للفكر الاجتماعى بصورته الانسانية •

والاسلام ، فوق ما اشتمل عليه من مبادىء خلقية سامية ، هو فى ذاته دين العقل •• فما من أمر جاء به الا كان موافقا للعقل ، يدركه ويصدقه ويذعن له ما دام غير معتكر بهوى غالب أو شهوات مسيطرة • فعقيدته ــ وهى الوحدانية لله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى خلقه وابداعه ــ أمر هو حكم العقل المستقيم الواعى حام حوله الفلاسفة الأقدمون • وليس فى ادراك تلك الوحدانية معوقات تعرقل العقل أو تعطله ، بل انها واضحة غير معقدة ، يصل اليها العقل اذا خلا من الأوهام ولم يرتكس فى الوثنية أو المادية ، كما جرى على ألسنة بعض الذين لا يدركون حقائق هذا الوجود • ان كل ما فى الاسلام من مبادىء يتفق تمام الاتفاق مع العقل ، حتى أن أعرابيا سئل : لماذا آمنت بمحمد ؟ فأجاب : ما رأيت محمدا قط يقول فى أمر : افعل ويقول

العقل : لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول فى أمر : لا تفعل ، والعقل يقول : افعل (٣) .

ويؤكد القرآن الكريم موضوعية الدين الاسلامى بقيـام العقيـدة الاسلامية على طابع الانصاف والتبصير ، حيث يقتضى الاسلام من كل مسلم ألا يقبل جزافا أو ينكر جزافا ، وانما يطالبه باعمال عقله . ولقـد حث الله تعالى الانسان على التفكير فى الكون ، والنظر فى الظواهر الكونية المختلفة ، وتأمل بديع صنعه ، ومحكم نظامه ، قال تعالى :

● **« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .. »**
(العنكبوت : ٢٠)

● **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »**
(الحج : ٤٦)

● **« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت . فذكر انما أنت مذكـر »** .
(الغاشية : ١٧ — ٢١)

● **« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى .. »**
(الروم : ٨)

● **« فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب »** .
(الطارق : ٥ — ٧)

ويتضح حرص القرآن الكريم على دعوة الناس الى التفكير من ورود كثير من الآيات التى تتضمن مثل هذه العبارات : **« أفلا يعقلون »** (٤) ، **« أفلا تتفكرون »**(٥) ، **« أفلا يتدبرون »**(٦) ، **« أفلا تتذكرون »**(٧) ، **« لقوم يعقلون »**(٨) ، **« لقوم يتفكرون »**(٩) ، كما أوضح القـرآن

---

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٤) يس : ٦٨ — (٥) الأنعام : ٥٠ — (٦) النساء : ٨٢

(٧) الأنعام : ٦ — (٨) الرعد : ٤ — (٩) يونس : ٢٤

أهمية التفكير فى حياة الانسان ، ورفع من قيمة الانسان الذى يستخدم عقله ، وحط من شأن من لا يستخدم عقله . قال تعالى :

● « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .
(الأنفال : ٢٢)

● « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضــل ســبيلا » . (الفرقان : ٤٤)

* * *

٥ ـ امتياز الاســلام بالالزام الاجتماعى :

تتميز العاطفة الدينية بقوتها الضاغطة لأنها موضوعية ، بمعنى أن خاصية القهر أو الالزام الدينى تترتب على خاصية الموضوعية . فالظاهرة الدينية ـ كظاهرة اجتماعية ـ عبارة عن ضروب من الشعور أو السلوك الذى يوجد خارج ضمير الفرد ، ومن الضرورى أن يفرض نفسه على شعوره وسلوكه ، وان كان الفرد ـ فى الحقيقة والواقع ـ لا يشــعر فى كثير من الأحيان بهذا القهر لاستجابته له بحسب العادة . فالمســلم ملتزم بأداء العبادات، فنراه يترك أمور الدنيا وشئونها ومباهجها كى يؤدى فريضة الصلاة فى موعدها أو الصوم أو الحج ، وهو يفعل ذلك تلقائيا عن عقيدة وايمان . ويضاف الى ذلك أن الاسلام دين للآخرة وللدنيا فى آن واحد ، بصورة تختلف عن غيره من العقائد التى ينبع بعضهــا من ماديات الحيــاة ثم تضفى عليها مسحة من العبادة أو الفلسفة السطحية ، وينبع بعضها الآخر من منابع الروحانيات التجديدية التى بقيت منفصمة عن معاملات الحياة الواقعية . وقد ترتب على ما اتصف به الاســلام من جمع بين الروح والمــادة ، والدين والدنيا ، أنه أصبح دينا حيا واقعيا يلائم الحياة مهما اختلفت ظروفها البيئية أو التاريخية . هــذا فضلا عن التصاق الاسلام بالحياة الاجتماعية فى مفهومها الحقيقى وصورتها الواقعية بدرجة كبيرة . وفى الوقت ذاته أصبحت العقيدة الاسلامية على اتصال بالبناء الاجتماعى بجانبيه المــادى والمعنوى . ومن هنا نجــد أن القهر أو الالزام بصورته الاسلامية هو قهر أو الزام اجتماعى ، يتقبله المسلم عن اقتناع ويصبح جزءاً من حياته .

* * *

٦ ــ امتياز الاسلام بالترابط الاجتماعي :

الاسلام بطبيعته دين « وصل » بين الناس • ولقد كان النبى محمد ﷺ تاجرا ، ولم يكن صاحب حرفة أو مهنة أخرى مما يفصل صاحبها عن المجتمع ، أو يجعله فى جانب خاص أو ضمن فئة منعزلة عن الناس • والتجارة ــ من وجهة نظر الاسلام ــ تنطوى على غالبية الرزق ، ففى الحديث النبوى الشريف :

ــ « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق » (رواه أحمد)

ب « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة » • (رواه الترمذى)

ومما تجدر الاشارة اليه أنه كان للتجارة دور كبير في انتشار الدين الاسلامى ، حيث حمل التجار والملاحون رسالة الاسلام الى أقطار بعيدة • وفى نفس الوقت كانت التجارة وسيلة لانتشار الثقافة الاسلامية بمظهريها المادي والمعنوى • وهكذا كانت التجارة والملاحة جناحى الاسلام فى الربط المكين بين أقطار المسلمين خلال العصور المختلفة ، على نحو شارك فى اقامة البناء الاجتماعى المشترك بخصائصه الاسلامية • كما كانت الجزيرة العربية ذاتها ــ الموطن الأصلى للاسلام ــ منطقة « وصل » بين أطراف العالم ، عندها تلتقى القارات الثلاث فى العالم القديم •

ولم يكن الأمر مجرد « وسط جغرافي » اتصالى بين أطراف العالم الاسلامى ، وانما كانت جماعات المسلمين ــ حتى فى الجهات النائية من أطراف العالم ــ لم تنعزل فى حياتها أو ثقافتها عن الوطن الأم للاسلام ، سواء فى التجارة أو فى تواصل الأرحام ، بمعنى أن الاسلام وسيلة « للتواصل الاجتماعى » بأوسع معانيه • ومن هنا كان التماسك الحيوى والثقافى بين المسلمين فى مختلف الأقطار ، بل ومن هنا كان التفاعل الاجتماعي بين الجماعات الإسلامية البيضاء

والسمراء فى مختلف المناطق الحارة والباردة والمعتدلة ، وأصبح هــذا التفاعل قواما للطابع الحضارى الاسلامى على مر العصور .

* * *

الجــانب الانســانى فى رســالة الاســلام

يلفت القرآن الكريم نظرنا الى أن الأنبياء الذين بعثهم الله دعاة الى توحيده ، وكان أول نداء لهم الى أقوامهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به ، لم تهمل دعوتهم الجانب الانســانى ، بل عملت على الاصلاح ومقاومة الفساد والانحراف .. (١٠) .

فهذا هود عليه السلام — كما ينكر على قومه الشرك بالله — ينكر عليهم العبث والانحراف والبطش والجبروت ..

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشــتم بطشتم جبارين » . (الشعراء : ١٢٨ — ١٣٠)

وصالح يحذر قومه من الطغاة المفسدين ..

« فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الــذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . (الشعراء : ١٥٠ — ١٥٢)

ولوط يقول لقومه :

● **« أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين »** .
(الأعــراف : ٨٠)

● **« أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون »** . (الشعراء : ١٦٥ — ١٦٦)

وشعيب يقول لقومه :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيــال والميزان ، انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقســط ، ولا تبخسوا النــاس أشياءهم

---

(١٠) يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام : ص ٦٢ — ٦٣ .

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين • بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ » • (هود : ٨٤ — ٨٦)

وهكذا نجد دعوات الرسل •• لم تنفصل عن مشكلات البشر ، ولم تغفل أحوال المجتمع الانسانى ، وما تتطلبه من علاج واصلاح •• ولكن ما موقف دعوة الاسلام من الجانب الانسانى ؟ !

ان كل دارس للاسلام فى كتابه وسنة رسوله ، يتضح له بجلاء أنه وجه عناية بالغة الى « الجانب الانسانى » ، وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه وتوجيهاته وتشريعاته • واذا نظرنا فى الفقه الاسلامى وجدنا « العبادات » لا تأخذ أكثر من الثلث فى مجموعه ، والباقى يتعلق بأحوال الانسان من أحوال شخصية ومعاملات وتشريعات للفرد وللأسرة وللمجتمع وغيرها من الجوانب الانسانية •

واذا تأملنا العبادات الكبرى نفسها ، وجدنا احداها « انسانية » فى جوهرها ، وهى « الزكاة » ، حيث تؤخذ من الانسان الغنى لترد على الانسان الفقير ، فهى للأول تزكية وتطهير ، وللثانى اغناء وتحرير • والعبادات الأخرى لا تخلو من جوانب انسانية نلمحها فى ثناياها ••

فالصلاة عون للانسان فى معركة الحياة ، وتنهاه عن فعل الفاحشة ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة •• »
(البقرة : ١٥٣)

« وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر •• »
(العنكبوت : ٤٥)

والصوم تربية لارادة الانسان على الصبر فى مواجهة المصاعب ، وتنمية لمشاعره على الاحساس بآلام غيره ، فيسعى الى مواساته • والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » • (البقرة : ١٨٣)

والحج مؤتمر ربانى انسانى دعا الله فيه عباده المؤمنين :

« ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. »
(الحج : ٢٨)

« الحج أشـــهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحـــج فلا رفث ولا فســـوق ولا جدال فى الحج .. » . (البقرة : ١٩٧)

واذا ما تأملنا المنهاج الأخلاقى للاسلام نجد أنه يحث المسلم على الآتى (١١) :

ــ أدب الحديث حتى يعود لسانه الجميـــل من القـــول واللفظ العفيف ، حتى يحفظ مودة الأصدقاء وينتصر على الأعداء . فعلينا أن نستمسك بآداب الحديث فى تعاملنا بعضنا مع البعض الآخر ، وأن نمسك عن بذىء اللفظ . فالكلمة الطيبة صدقة . قال تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحســـن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . (فصلت : ٣٤)

ــ والاسلام دين سمح ، يشجع على العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، أى التسامح . فبالحلم والتسامح تدوم الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم ، كما أن الرحمة تجعلنا نرق لآلام الآخرين ونقدر ظروفهم . فالعفو من شيم الكرام . قال تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انـــه لا يحب الظالمين » . (الشورى : ٤٠)

ــ والاسلام يحثنا على التمسك بالحلم وضبط النفس ، وألا يعصف الغضب بنفوسنا فنتقدم على أعمال لا تحمد عقباها ونندم عليها فيما بعد . وعلى قدر ما نضبط أنفسنا ، ونكظم غيظنا ، ونسيطر على أقوالنا وأفعالنا ، ونتجاوز عن هفوات غيرنا ونرثى لعثراتهم ، تكون منزلتنا عند الله والناس . قال تعالى :

« .. والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .
(آل عمران : ١٣٤)

---

(١١) سيد عبد الحميد مرسى ، **الدين المعاملة** ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

ومن الحديث النبوى الشريف :

« ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » . (رواه مسلم)

— والعدل أساس الملك .. ان العـــدالة فى الأقوال والأفعال مطلوبة فى كل مكان وزمان . ولقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، بمعنى أنه لا فضل لشخص على آخر الا بالعمل الصالح ، مع مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع .. فلا تحيز ولا تحامل ، والكل سواء ، فلا وساطة ولا قرابة ولا صداقة تبيح أن نهدر حق شخص كى نجامل أو نخدم آخر . قـــال تعـــالى :

« .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . (الأنعام : ١٥٢)

— ان الصـــدق فضيلة ، والكذب رذيلة .. فالتمسك بالصـــدق فى كل شأن ، وتحريه فى كل قول وفعل ، والالتجاء اليه فى كل حكم ، دعامة أساسية فى خلق المسلم . وعلينا أن نتحرى الصـــدق دائما ، وألا نلجأ للكذب لتبرير أخطائنا . وقد يلجأ بعض الناس الى الكذب للمزاح والتفكه على الآخرين والترويح عن النفس ، ولكن الاســـلام لا يرضى بهذا الأسلوب فى استخدام الكذب ، حيث ان اللهو بالكذب كثيرا ما ينتهى بالعداوات . قال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .
(التوبة : ١١٩)

وفى الحديث النبوى الشريف :

« يطبع المؤمن على الخلال كلها ، الا الخيانة والكذب » .
(رواه أحمـــد)

« ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ، ويـــل لـــه » . (رواه الترمذى)

— ويستلزم الاسلام أن يكون المسلم ذا ضمير يقظ ، تصان به حقـــوق الله وحقوق الناس ، ومن ثم أوجب على المســـلم أن يكون

« أمينا » • والأمانة واسعة الدلالة ، وهي ترمز الى معان شتى تستهدف شعور الانسان بتبعته فى كل أمر يوكل اليه ، وادراكه الأكيد بأنه مسئول أمام ربه على النحو الذى فصله الحديث النبوى الكريم :
« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى بيت سيده راع وهو مسئول عن رعيته » • (رواه البخارى)

— وعلى كل مسلم أن يحترم كلمته ووعوده ، مما يستلزم قوة الذاكرة وقوة العزيمة • وعلينا أن نتذكر ماضينا حتى ننتفع به فى حاضرنا ومستقبلنا • ان اخلاص النية والقلب والضمير للخالق سبحانه وتعالى ترتفع بمنزلة العمل الدنيوى فتجعله فى مرتبة العبادة • قال تعالى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » •
(النحل : ٩١)

— والصبر مفتاح الفرج •• فعلينا أن نوطد أنفسنا على احتمال المكاره دون ضجر ، وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، دون شك أو ريبة فى أن بعد العسر يسرا ، والصبر عن المعاصى والادبار عن الشهوات لا يتأتى الا لصبور • قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » • (البقرة : ١٥٥ — ١٥٧)

وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » • (رواه مسلم)

— ولقد أوصى الاسلام بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامى من أبرز ما يتميز به المسلم من فضائل •• وينبغى اتباع الحياء فى الكلام ، ومراعاة الاقتصاد فى الحديث بالمحافل والاجتماعات ، فالأفضل ألا يكون الحديث فى غير موضعه ومراعاة استخدام الألفاظ السليمة دون

بذاءة أو فحش أو سباب ، مع توخى الدقة فى اختيار الكلمات المناسبة للموقف ، ولكل مجال مقال ، واحترام ذوى المكانة والفضل والأكبر سنا .

وفوق كل هذا الحياء من الله سبحانه وتعالى ، خالق كل شيء ، فإنه — سبحانه — قد أسبغ علينا نعمة الحياة ورزقنا من فضله .

وفى الحديث النبوى الكريم :

« ان لكل دين خلقاً ، وخلق الاسلام الحياء » .

(رواه مالك)

« الحياء من الايمان والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » . (رواه أحمد)

— المرء قليل بنفسه كثير باخوانه .. فالانسان كائن اجتماعى لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الآخرين ، فالشعور بالانتماء يشكل احدى الحاجات الأساسية للانسان .. فهو منذ نشأته ينتمى الى الأبوين ، والى الاخوة ، والى الأسرة ، والى رفاق الدراسة ، والى زملاء العمل ، والى المجتمع بوجه عام ، والاخاء أساس العلاقات بين البشر ، والأثرة تميت القلوب وتبلد الشعور الانسانى ، وتجعل من الشخص عبدا لنزواته وأهوائه . قال تعالى :

« .. واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. » . (آل عمران : ١٠٣)

— وأخيرا وليس آخرا فالاتحاد قوة .. إن ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج من ألزم صفات المسلمين ، واجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف من أهم الضرورات لقوة المجتمع واستمراره وصموده أمام أعدائه[١٢] . قال تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .. » . (التوبة : ٧١)

* * *

---

(١٢) سيد عبد الحميد مرسى ، **الدين المعاملة** ، (جدة : ادارة تدريب التسويق ، الخطوط الجوية العربية السعودية ، ١٩٨٥) ص ٢٩ — ٣٠ .

الفــرد والمجتمع

أولا ـ الفــرد :

الفرد هو وحدة الدراسة الاجتماعية والنفسية ، ولا تنطبق عليه الصفة الاجتماعية اذا لم يعش فى مجتمع ، فمن الضرورى أن يعيش الانسان فى المجتمع اســتجابة لميله الطبيعى الى الحياة الاجتماعية ، باعتبار أن الانسان المنعزل فى الكون مجرد فرض غير قائم • فالانسان بمقتضى حاجاته ودوافعه المتعددة ، التى تستهدف حفظ النوع من خلال الانجاب والتعامل مع الآخرين والتفاعل معهم ، نجده يعمل على اشباع الحاجة الى الانتماء للجماعات المختلفة حتى يحقق أهدافه فى اطار أهداف الجماعة التى ينتمى اليها كالأسرة والمدرسة والعمل وما أشبه • وهو يبحث دائما عن المــال والجاه والولد ، قال تعالى :

● **« أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا »** •
(مريم : ٧٧)

● **« المــال والبنون زينة الحياة الدنيا •• »** • (الكهف : ٤٦)

واذا كان الانسان يولد فردا ويعود الى ربه فردا ، لقوله تعالى :
« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » • (الأنعام : ٩٤)

غير أن الانسان الفرد يعيش طوال حياته ـ أى من المهد الى اللحد ـ داخل جماعات صغيرة ، فاذا انتهى أجله يقف أمام الخالق سبحانه يوم الحشر فردا ، لقوله تعالى : **« ونرثه ما يقول ويأتينا فردا »** •
(مريم : ٨٠)

وهــذا زكريا لم يســتطع أن يعيش فى المجتمع فردا منفردا ، ومن ثم دعا ربه ألا يذره فردا ، لقوله تعالى :

« وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين •

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين » •

(الأنبياء : ٨٩ — ٩٠)

ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الا فى مجتمع من بنى جنسه ، حيث يتبادل الأفكار والعلاقات والمعلامات مع أفراده ، وان كانت هناك حالات استثنائية ينعزل فيها الفرد عن المجتمع — مثل الزهاد والمتصوفين، وحالات النفى والاعتقال — فان هـذه الحالات الانعزالية ليست دائمة وانما تنتهى بانتهـاء الظروف التى أدت اليها • والفـرد — بالمعنى الاجتماعى — هو الانسان بما له من حقوق وعليـه من واجبات فى المجتمع ، ويكون الفـرد فى المجتمع عضوا فى جماعات متنوعة على المستوى المحلى أو القومى أو الدولى •

ومن هنا فان الفرد لا يتصور وجوده الا فى اطار مجتمع • ولذلك يقال ان وجود المجتمع سابق على وجود الفرد ، بمعنى أنه يولد فى مجتمع ، وبالتحديد فى أسرة — أى جماعة — ولهـذا يقال بأسبقية الجماعة • ان الفرد يولد وهو فى حالة ضعف كامل لا حول له ولا قوة ، وأنه بفضل التربيه والتنشـئة الاجتماعية فى اطار المجتمع يتشـكل حضاريا • وعلى ذلك فان الأسرة ، وكل المؤسسات الاجتماعية والتربوية فى المجتمع ، هى التى ترفع الفرد الى المستوى الحضارى اللائق فى المجتمع • وبفضل الدور الذى تقوم به الأسرة والمؤسسات التربوية تطغى الطبيعة الاجتماعية للفرد على الطبيعة الفيزيقية ، وبذلك يمثل كل فرد نوعا من الثقافة يكتسبها من طبيعته الاجتماعية ، بكونه ينتمى الى مجتمع معين له شكل عام ، قد يكون متخلفا أو ناميا أو متقدما •

ويقتضى الاسلام ضرورة توضيح صلة الفرد بربه ، ووضع أصول تنظيم العلاقات الانسانية ، على أن يكون ذلك مسبوقا بخشيتهم للخالق سبحانه واستشعارهم لعظمته ، وأنه يعلم من الانسان سره كما يعلم منه علانيته • وبذلك تستقر فى نفوس الأفراد مبادىء الرحمة والمحبة والتعاون ، وتبادل المنافع وتوحيد المشاعر والأحاسيس • ومن هنا يرى

الفرد نفسه وحدة من وحدات المجتمع ، فيبذل من نفسه وماله وراحته ما يحقق عضويته فى المجتمع(١٣) .

* * *

ثانيا — الجمــاعة :

من وجهــة نظر علم الاجتماع ، فان الجمــاعة هى الأداة التى يستخدمها المجتمع فى تنشئة أو تطبيع أفراده . وتعرف الجماعة بأنها « شخصان أو أكثر مشتركان فى المبادىء والقيم والمعايير النابعة منهم ، ويكون لكل منهم دور نحو الآخر من أجل تحقيق هدف معين يؤدى الى اشـباع حاجاتهم الاجتماعية ، ويكون وجودهم معا خاضعا لقواعد اجتماعية محددة بصورة تسمح بأن يتوقع كل من أفرادها سلوك الآخر توقعا واضحا بدرجة من الدقة » (١٤) . ومن هذا التعريف ينبغى أن تتوافر فى الجماعة العناصر التالية :

١ — أن يكون تكوين الجماعة خاضـعا لقواعد اجتماعية معينة : مثل عقود الزواج وما يتصل بها من عرف وعادات وتقاليد ، أو قواعد توزيع التلاميذ على الفصول باعتبار الفصل جماعة دراسية ، أو قواعد تشكيل الفرق الرياضية ، أو قواعد توزيع العاملين داخل المؤسسات الحكومية . فهذه القواعد تحدد حقوق وواجبات كل طرف من أطراف الجمــاعة .

٢ — أن يتوافر شرط التفاعل الاجتماعى المباشر : بحيث يكون هــذا التفاعل شرطا من شروط تكوين الجماعة . وقد يكون هــذا اتصالا أو تنافسا أو صراعا أو توافقا وتعاونا أو تنشئة اجتماعية .

٣ — أن يكون لكل من أفراد الجماعة دور محدد : فالأب فى جماعة الأسرة له دور واضح باعتباره راعيا لتلك الأسرة ، والأم لها دور واضح فى رعاية الأسرة ، والأبناء لهم أيضا دور وهو تلقى أسس التربية فى الأسرة وأسس التعليم فى المعـاهد التعليمية وتحقيــق النجاح فى الدراسة والوصـول الى درجة معينة من النضج الاجتماعى اللازم للمواطن الصالح .

---

(١٣) زيدان عبد الباقى ، **علم الاجتماع الاسلامى** ، ص ٧١ — ٧٣
(١٤) **المرجع السابق** ، ص ٧٨ — ٧٩ .

٤ — **شرط الهدف** : فينبغى أن يكون لكل جماعة هدف تسعى الى تحقيقه ، مثل جماعة العمل التى يكون هدفها تحقيق الكفاية الانتاجية ، ومثل جماعة الأسرة التى يتحقق فيها التوافق والوئام واستمرار النوع وتحقيق العواطف والتكيف النفسى والاجتماعى لأفرادها •

٥ — **شرط التوقع** : وهو يستند الى حقوق وواجبات أعضاء الجماعة التى تحددها قواعد تكوينها •• فالزوجة التى لا تقوم بواجباتها المنزلية فى حينها تتوقع من زوجها المؤاخذة أو التأنيب ، والعامل أو الموظف الذى يقصر فى أداء عمـله يتوقع من رئيسـه اللوم أو التأنيب أو العقاب •

وترتيبا على ذلك فان الانسان كائن اجتماعى لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين فى المجتمع ، وانما من الضرورى أن يعيش فى جماعة أو جماعات حتى يستطيع اشباع مختلف حاجاته الاجتماعية • ولكن الجماعة لا تقوم باشباع حاجات الفرد وتحقيق رغباته دون شرط أو قيد ، وانما تضع له القواعد والأسس التى يتم فى نطاقها اشباع دوافعه وتحقيق رغباته • ومن ثم فان الفرد — اذا أراد اشباع دوافعه وحاجاته — يقوم بعدة عمليات للتوافق الاجتماعى مع الأوضاع السائدة فى الجماعة • من هنا تنعكس تأثيرات الجماعة على شخصيته ، أو بمعنى آخر تبدأ الجماعة (الأسرة) منذ لحظة ولادته فى تشكيل طبائعه ، حتى تأخذ كل منها السمة المعينة التى تميزه عن غيره • فالجماعة تساعد الفرد — منذ لحظة وصوله الى العالم الواقعى — على تحويل قدراته الفطرية الى استعدادات ومهارات — طبقا لمستواها الحضارى — حتى يصبح له شخصية مستقلة متميزة بخصائص نفسية واجتماعية وبدنية وعقلية • وعندما يصل الفرد الى درجة من النضج العقلى والنفسى والاجتماعى ، وتتوافر لديه القدرات العقلية العليا (الادراك — التذكر — الاستدلال — التفكير الابتكارى — التفكير الناقد — تكوين المفهوم — الحكم) ، فانه قد يعمل على التأثير فى المجتمع بصورة ما ، مثل كثير من الزعماء والعلماء والمبتكرين •

***

ثالثا — المجتمـع :

يتكون « المجتمع » من بنى الانســان فى جهودهم المشــتركة والتفاعل المتبادل ، بمعنى أن المجتمع يسمح بنوع من الاكتفاء الذاتى فى الغالب • فالجماعة لا تسمح — بمجالاتها الضيقة — باشباع كل حاجات الانســان بالمستوى الحضارى المعروف ، ما لم تتكامل تلك الجماعات مع غيرها من المجتمعات المحلية ، والتى فى مجموعها تشــكل المجتمع بالصورة التى تضم النظم الاجتماعية المختلفة ، التى تستطيع بامكاناتها المتعددة الفسيحة أن توفر كل متطلبات الاشباع الحضارى للانسان • وعلى ذلك فانه اذا كانت الثقافة هى طريق المجتمع وأسلوبه ، فان المجتمع هو الحياة عينها •• ذلك أن المجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الانسان ، ولا يستطيع بدونه أن يشبع دوافعه اشباعا حضاريا ملائما • فمما لا ريب فيه أن المجتمع يجعل الحياة الاجتماعية ميسورة ، بل ان المجتمع هو الذى يغرس فى الفرد القيم والمعايير والمبادىء الاجتماعية والأخلاقية ، ويحدد أدواره وأنماط سلوكه ، ومن ثم فان وجود الفرد وكيانه يتوقف على وجود المجتمع • وعلى ذلك فان أهمية المجتمع للفرد وأهمية الفرد للمجتمع لا تحتاجان الى تأكيد •

مما سبق يمكن تعريف المجتمع « كجماعة منظمة من الناس ومرتبطة بروابط تضامنية فى شكل أنساق للحياة ، تقام لتوفير امكانية التفاعلات الطبيعية من خلال نظم تضمن لهم الدفاع عن أنفسهم وتوفير متطلبات الحياة لهم »[١٥] • وينطوى هـذا التعريف على بعض المفاهيم التى تتطلب تناولها بالدراسة ، ومن أهمها :

١ — التنظيم :

ان المجتمع ، مهما كان مستوى تحضره — بدائيا كان أو متخلفا أو متحضرا ، فمن الضرورى أن يظهر فيه نمط من الحياة الاجتماعية يميزه عن غيره من المجتمعات • فالحياة الاجتماعية تتطلب وجود قواعد

---

(١٥) **المرجع السابق** ، ص ٩٤ — ٩٥ •

وتنظيمات لتوجيه أنماط السلوك ، ولتوقيع الجزاء على المخالفين للنظام أو المعتدين على النظـام الاجتماعي •• ووجـود مثل تلك القواعد والتنظيمات في المجتمع « ضرورة اجتماعية » لتيسـير القيام بأعباء الأعمال والواجبات الناتجة عن خاصية الانتماء للمجتمع بشكل متكامل •

وترتيبا على ذلك ، فان كل جماعة من الناس لا تملك تلك القواعد والتنظيمات ليست أهلا لأن يطلق عليها اصطلاح « مجتمع » ، ما دامت قد فشلت في وضع القواعد التي تنظم حياتها الاجتماعية ، وهي تعتبر منظمة اجتماعية غير فعالة • ومن هنا فان الجماعة الجديرة بأن توصف « بالمنظمة الاجتماعية » هي التي يعرف كل عضو فيها ما هو متوقع منه ، وما هو متوقع من الجماعة ، ومن كل عضو ، وبالتالي يؤدي دوره ، كما تؤدي الجماعة دورها ، في وضوح كامل وفي تكامل وتساند • وأن استمرار الأخذ بتلك القواعد والتنظيمات يتحول على المدى البعيد الى عادات مكتسبة ، بحيث تسمح للجميـع بأداء واجبات متعددة بطريقة لا شعورية ، في الوقت الذي يوجه فيه انتباههم الى أعمال أكثر أهمية •

٢ — التضـامن :

لا يقوم المجتمع — كما أوضحنا — بدون روابط معينة تربط الأفراد والجماعات بعضها بالبعض الآخر داخل المجتمع • ومن أهم هـذه الروابط في المجتمع رابطة الزواج أي روابط الاقتران والتضامن التي تتمثل في الأسرة أو التي تقوم عليها الأسرة • وترجع أهمية تلك الروابط الى أنها تنطوي على أسس بيولوجية ونفسية بجوار الأسس الاجتماعية • وبالاضافة الى ذلك ، هناك الروابط القانونية ، وروابط الجوار والزمالة وما أشبه ، وترجع قوة هـذه الروابط الى الأسس الاجتماعية التي تقوم عليها • ومن هنا فان معرفتنا « للبناء الاجتماعي » يمكن الاستدلال عليها من معرفتنا لأهمية تلك الروابط •

وكلمة « البناء » من الكلمات العربية الأصيلة ، وان استخدمت بعدة معان •• فها هي امرأة عوف الشيباني تنصح ابنتها ليلة بنائها — أي زفافها — نصيحة سيدة حكيمة وخبيرة بالنفس البشرية ونوازعها

وأبعادها الاجتماعية ، أى خبيرة بأوضاع « البناء الأسرى » ، مما يدل على قدرتهـا الفائقة فى التوجيـه الاجتمـاعى ، فمما قالته هـذه السـيدة لابنتها :

« أى بنية ، انك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، الى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ، يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك زخراً ، وهى :

— أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطـاعة .

— وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك الا أطيب ريح .

— وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فـان تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة .

— وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، ورعاية جسمه وعياله .

— وأما التاسعة والعاشرة : فالحرص على شرفه فى حضـوره وغيبته والحرص على سمعته .

ثم تختتم النصيحة الثمينة بقولها : « واعلمى أنك لا تبلغين ما تحبين حتى تؤثرى رضـاه على رضـاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببـت أو كرهت .. »(١٦) .

وقد استخدم الرسول عليه الصـلاة والسلام مفهوم « البناء » بما يفيـد معنى « البناء الاجتماعى » فى مجال توضيحه للعلاقات الاجتماعية التى تربط المجتمع الاسلامى مشبهاً اياها بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ففى الحديث النبوى الكريم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . (رواه أحمد ومسلم)

* * *

---

(١٦) زيدان عبـد الباقى ، **المرأة بين الدين والمجتمع** . القـاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ٩٩ .

مظاهر التكريم الالهى للانسان

الانسان — فى نظر الاسلام — مخلوق متميز ، مكرم ، ميزه الله وكرمه وفضله على كثير من خلقه • ونذكر فيما يلى بعض مظاهر التكريم الالهى للانسان(١٧) :

١ — استخلافه فى الأرض :

لقد كرم الاســلام الانسان ، فاعتبره خليفة الله فى الأرض ، وهى منزلة اشرأبت اليها أعناق الملائكة ، فلم يعطوها ، ومنحها الله للانسان • قال تعالى :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نســبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأســمائهم ، فلما أنبأهم بأســمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » •

(البقرة : ٣٠ — ٣٣)

فلقد كرم الله الانسان بالخلافة فى الأرض ، وهيأه لها بالعقل والعلم الذى تفوق به على الملائكة •

* * *

٢ — خلقه فى أحسن تقويم :

وأعلن الاســلام كذلك أن الله كرم الانسان بالصــورة الحسنة وبالخلقة الحسنة ، فقال تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » • (التين : ٤)

« •• وصوركم فأحسن صوركم •• » • (التغابن : ٣)

---

(١٧) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** • ص ٦٧ — ٧٧

وكان النبى — ﷺ — يكرر هــذا الدعاء فى سجوده : « سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

* * *

٣ — تميزه بالعنصر الروحى :

لقد تميز الانسان بالروح العلوى الذى أودعه الله بين جنبيه . فهو قبس من نور الله ، ونفحة من روح الله ، استحق به أن تتحنى له الملائكة اجلالا واكبارا لمقدمه بأمر الله ، كما قال تعالى لملائكته :

« .. انى خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . (سورة ص : ٧١ — ٧٢)

ولم يكن هــذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام ، وانما كان تكريما للنوع الانسانى فى شخصه . فان الله تعالى ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح ، واستخلفهم كما استخلفه فى الأرض . ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة حين قال :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(الاسراء : ٧٠)

وهذا كله يثبت أن الانسان نوع متفرد متميز عن سائر المخلوقات ، فانها — وان شابهته فى عناصر تكوينها الطينى الجســمى — تخالفه ويخالفها فى التكوين المعنوى . فهى لم يكرمها الله بما كرم به الانسان من الروح والعقل ، ولأنها لم تكلف ما كلفه من عمارة الأرض وخلافة الله فيها . وهى مجرد أدوات له فى مهمته ليسخرها فى حاجته .

* * *

٤ — تميزه بالعقل والتفكير :

يشترك الانسان مع الحيوان فى وظيفة الادراك الحسى ، ولكن الانسان يتميز عن سائر المخلوقات بما وهبه الله تعالى من عقل ، ومن قدرة على التفكير تمكنه من النظر والبحث فى الأشــياء والأحداث ، واستخلاص الكليات من الجزئيات ، واستنباط النتائج من المقدمات ..

ان قدرة الانسان على التفكير هى التى جعلته أهلا للتكليف بالعبادات ، وتحمل مسئولية الاختيار والارادة ، وهـــذا هو ما جعله أهلا لخـــلافة الله تعالى فى الأرض •

وتعتبر المعلومات التى يستمدها الانسان — عن طريق الادراك الحسى فى المرحلة الأولى من حياته — المـــادة التى يستعين بها فيمـــا بعد •• فهو يستعيدها فى ذاكرته ، ويتخيلها ، ويقارنها بعضها بالبعض الآخر ، ويصنفها وينظمها ويحللها بما يساعد فى الكشف عن معلومات جديدة • وتضاف المعلومات الجديدة التى يتوصل اليها الانسان — خلال عملية التفكير — الى ذخيرة معلوماته الســـابقة • ويقوم الانسان بصفة مستمرة بعملية تنظيم المعلومات السابقة ، والكشف عن معلومات وحقائق جديدة •• وهـــذا هو أساس تطور البحث العلمى ، وسبب ما يحدث من تقدم مستمر فى العلوم المختلفة •

ولقد حث الله تعالى الانسان على التفكير فى الظواهر الكونية المختلفة ، وتأمل بديع صنعه ، ومحكم نظامه •• كما حثه على تحصيل العلم ومعرفة شرائع الله وقوانينه فى جميع شئون الحياة • واننا نجد هـــذه الدعوة الى الملاحظة والتفكير والتأمل فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، قال تعالى :

● **« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق •• »**
(العنكبوت : ٢٠)

● **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض •• »** •
(يونس : ١٠١)

● **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصـــار ولكن تعمى القلوب التى فى الصـــدور »** •
(الحج : ٤٦)

● **« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت • فذكر انما أنت مذكر »** •
(الغاشية : ١٧ — ٢١)

● « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيهــا من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

(البقرة : ١٦٤)

● « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيــة وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

(الأنعام : ٩٩)

● « فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا المــاء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » .

(عبس : ٢٤ — ٣٢)

● « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى .. » . (الروم : ٨)

● « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » . (الطارق : ٥ — ٧)

ويتضح حرص القرآن الكريم على دعوة الناس الى التفكير من ورود كثير من الآيات التى تتضمن مثل هــذه العبارات : « **أفلا يعقلون** » « **أفلا تتفكرون** » ، « **لعلكم تعقلون** » ، « **لعلكم تتفكرون** » ، « **أفلا يتدبرون** » ، « **أفلا تتذكرون** » ، « **لقوم يعقلون** » ، « **لقوم يتفكرون** » .

وقد أوضح القرآن الكريم أهمية التفكير فى حياة الانسان ، ورفع من قيمة الانسان الذى يستخدم عقله وتفكيره ، وحط من شأن من لا يســتخدم عقله وتفكيره بأن جعله أدنى درجــة من الحيــوان ، قال تعــالى :

« **ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** » .

(الأنفال : ٢٢)

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سـبيلا » . (الفرقان : ٤٤)

* * *

٥ ـ تسخير الكون لخدمة الانسان :

كان من تكريم الله للانسان ـ فى نظر الاسلام ـ أن جعل الكون كله فى خدمته ، وسخر لخدمته العوالم كلها .. السـماء والأرض ، الشمس والقمر والنجوم ، الليل والنهار ، البحار والأنهار واليابس ، النبات والحيوان والجماد .. كلها مسخرة لخدمة الانسان ومصلحته وسعادته ، كرامة من الله له ونعمة منه عليه ، قال تعالى :

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمـة الله لا تحصوها .. » . (ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤)

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

(الجاثية : ١٢ ـ ١٣)

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . (لقمان : ٢٠)

ان الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للانسان ، لا يستعصى شىء منها عليه اذا تيسرت سبله ، وروعيت سنن الله فيه . فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره فى فتح مغاليقها ، والكشف عن خباياها ، حتـى يستخدمها فيما يعود عليه وعلى الانسانية بالخير والسعادة . وخـير مثال لذلك أن الانسان اكتشف تفتيت الذرة ، وفى هـذا الكثير لخدمة السلام والانسانية ، وليس لشقاء الشعوب وتدميرها من خـلال الحرب الذرية . ولقد انطلق الانسان يغزو الفضاء ، وهذا كشف علمى مثير لخدمة

العلم والبشرية ، وليس للتفوق العسكري أو السيطرة على الدول الأخرى وتهديدها •• وعلى الانسان أن يتوجه للخالق سبحانه بالشكر والعرفان على ما أسبغ عليه من نعم وسخر له من طاقات كونية لخدمته ، وألا يشرك به أحدا •

* * *

٦ — الغاء الوساطة بين الله والانسان :

لقد كان من دلائل تكريم الله للانسان فى نظر الاسلام أنه فتح لـه باب التقرب اليه سبحانه وتعالى أنى شاء ، ومتى شاء ، دون ما حاجة الى وسطاء يتحكمون فى ضميره ، ويقفون حجابا بينه وبين ربه • يقول الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم :

«واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان••»
(البقرة : ١٨٦)

ويقول فى آيات أخرى :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم •• » (غافر : ٦٠)
« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » •
(البقرة : ١٥٢)

وفى الحديث القدسى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وان تقرب الى شبراً ، تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعاً ، تقربت اليه باعاً ، وان أتانى يمشى ، أتيته هرولة » •
(رواه البخارى ومسلم والترمذى)

لا حاجة بالانسان اذن الى وساطة كاهن ، يصل عن طريقه الى الله — ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه الا بالجلوس أمامه فى ذل وخنوع على كرسى الاعتراف المشهور • فليس فى الاسلام كاهن ولا كهنوت •• وبهذا يستطيع الانسان

المسلم أن يقرع باب ربه ويدعوه متى شاء، وأين شاء، بعيدا عن سيطرة المدعين للسمسرة بين الله وعباده • فهو يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب اليه من حبل الوريد ، دون وسيط أو شفيع • وقد قال تعالى :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب •• » (البقرة : ١٨٦)

ويستطيع أن يصلى ويتعبد فى أى مكان ، وحده أو مع غيره ، دون قيود ، فالأرض كلها له مسجد ، والله — سبحانه — قريب منه حيث كان :

« •• فأينما تولوا فثم وجه الله •• » (البقرة : ١١٥)

ان باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه ، ووقف على عتبته ضارعا مستغفرا ، وان اقترف قبل ذلك كبائر الاثم وفواحش الذنوب • يقول تعالى :

« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » • (آل عمران : ١٣٥)

وفى الحديث القدسى : عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « قال الله : يا ابن آدم ، انك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، انك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا — لأتيتك بقرابها مغفرة » •

(رواه الترمذى)

وفى القرآن الكريم :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » •

(الزمر : ٥٣)

فما أجمل وأرق هذا النداء « يا عبادى » ، فرغم خطاياهم واسرافهم على أنفسهم ، لم يطردهم من ساحته ، ولم يحرمهم شرف عبوديته ، وأضافهم الى ذاته المقدسة ، ايناسا لهم ، وتحببا اليهم •

* * *

٧ ــ الاعتراف بالكيان الانسانى كله :

وكان من تكريم الاسلام للانسان أن اعترف به كله كما فطره الله .. جسمه ، وروحه ، وعقله ، وقلبه ، وارادته ووجدانه .. فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر .

ــ لهذا أمره بالسعي فى الأرض والمشى فى مناكبها ، والأكل من طيباتها والاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده فيها ، وحثه على النظافة والتجميل والاعتدال ، ونهاه عن المسكرات والامتناع عن كل ما يضره ، وفاء بحق جسمه .

ــ وأمره بعبادة الله وحده ، والتقرب اليه بأنواع العبادات .. من صلاة وصيام وصدقة وزكاة ، وحج ، وذكر ودعاء ، وانابة وتوكل ، وخوف ورجاء ، وبر واحسان ، وجهاد فى سبيل الله وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة ، وفاء بحق الروح .

ــ وأمره بالنظر والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وفى مصائر الأمم ، وسنن الله فى المجتمعات . كما أمره بطلب العلم والتماس الحكمة من أى وعاء خرجت منه ، كما أنكر عليه الجمود والتقليد للآخرين ، كل ذلك وفاء بحق العقل .

ــ ولفته الى جمال الكون بأرضه وسمائه ونباته وحيوانه ، وما زانه الله به من مظاهر الحسن والبهجة ، ليشبع حاسة الجمال فى نفسه ، ويشعر فى أعماقه بعظمة الخالق سبحانه ، الذى أحسن كل شىء خلقه . كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو البرىء وترويح النفس ، دفعا للسآمة عنها ، فانها تمل كل تمل الأبدان ، وتتعب كما تتعب ، . وفى هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة .

قال تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (الاسراء : ٧٠)

« لقد خلقنا الانســان فى أحسن تقويم » . (التين : ٤)

الانسان هو أكرم شيء في هذا الوجود ، وهو مكرم عند الله ابتداء من آدم عليه السلام ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد كرم الله الانسان كانسان بصفة عامة ، فالناس جميعا اخوة متساوون كأسنان المشط . قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .
(الحجرات : ١٣)

لقد سما الاسلام بالانسان فاعترف به كله .. روحه وجسده ، عقله وقلبه ، ارادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة .. لم يضع في عنقه غلا ، ولا في رجله قيدا ، ولم يحرم عليه طيبا ، ولم يغلق في وجهه باب خير ، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به ، بل خاطبه خطابا مباشرا :

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . في أى صورة ما شاء ركبك » . (الانفطار : ٦ ـ ٨)

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .
(الانشقاق : ٦)

* * *

الاسلام وحقوق الانسان

جاء الاسلام ليقرر أن للانسان حقوقا ينبغى أن ترعى ، كما أن عليه واجبات ينبغى أن تؤدى . فكما أنه يسأل عما عليه ، يجب أن يعطى ما له ، فكل واجب يقابله حق ، كما أن كل حق يقابله واجب . وهذه الحقوق ليست منحة من مخلوق آخر يمن بها عليه ان شاء ويسلبها منه متى شاء . . بل انها حقوق قررها الله له ، فهى حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة معا .. ومن هذه الحقوق : حق الحياة .. حق الكرامة .. حق الكفاية .. التى سنناقشها فيما يلى[18] :

---

(١٨) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** ، ص ٧٧ — ٨١ .

١ ــ حق الحياة للانسان :

قدس الاسلام حق الحياة للانسان ، وحماه بالتربية والتنشئة الصالحة والتوجيه ، وبالتشريع والقضاء ، وبكل ما يدعمها من مؤيدات نفسية وفكرية واجتماعية • لقد اعتبر الاسلام الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره •• فلا يجوز لحاكم أن يسلب حياة المحكوم ، ولا لسيد أن يسلب حياة عبده ، ولا لزوج أن يسلب حياة زوجه ، ولا لوالد أن يسلب حياة ولده•

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الجاهلية من العرب قتل أولادهم سفها بغير علم •• فوأدوا البنات خاصة مخافة العار ، وقتلوا أبناءهم جميعا من أجل الاملاق الواقع أو خشية الاملاق المتوقع ، وجعل القرآن ذلك من أكبر الآثام • قال تعالى :

« **وإذا الموءودة سئلت • بأى ذنب قتلت** »• (التكوير : ٨ — ٩)

« **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا** » • (الاسراء : ٣١)

لم يفرق الاسلام فى حق الحياة بين أبيض وأسود ، ولا بين حر وعبد ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين كبير وصغير •• حتى الجنين فى بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها ، حتى الجنين الذى ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه ، لأنه نفس بشرية لا يحل الاعتداء عليها •• فلقد جاءت امرأة الى النبى صلى الله عليه وسلم وأقرت عنده أنها حملت سفلحا ، وطلبت اليه أن يطهرها باقامة الحد عليها ، قال لها : اذهبى حتى تلدى •• فلما وضعت طفلها جاءت بالطفل الى الرسول عليه الصلاة والسلام مطالبة مرة أخرى باقامة الحد ، فقال لها : اذهبى حتى تفطميه ، ولم ينفذ فيها العقوبة الا بعد أن جاءت بالطفل وقد أصبح يأكل الطعام[١٩] • •كل هذا رعاية لحق الجنين ، ثم المولود الرضيع ، لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه أو اقترفه أبوه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى •

---

(١٩) رواه مسلم •

ومن أجل المحافظة على الحياة ، جاءت آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ تنذر بأشد العذاب من اعتدى على نفس بغير حق ، حتى ذهب بعض علماء المسلمين الى أن القاتل لا تقبل له توبة .

وفى سبيل المحافظة على الحياة شرع الاسلام فى قتل العمد القصاص مع الترغيب فى العفو والصلح بعوض أو بغير عوض ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة .. »

(البقرة : ١٧٨)

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

(البقرة : ١٧٩)

كما شرع الاسلام الدية والكفارة فى القتل الخطأ ، قال تعالى :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

(النساء : ٩٢)

وكيف لا يحمى الاسلام حق الحياة للانسان ، وقد حمى حياة الحيوان اذا لم يكن منه أذى للناس ، قال تعالى :

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »

(الأنعام : ٣٨)

وفى الحديث النبوى الكريم أن رسول الله ﷺ قال : « عرضت على النار ، فرأيت فيها امرأة من بنى اسرائيل تعذب فى هرة لها ، ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا » .

(رواه مسلم)

* * *

٢ ـ حق الكرامة وحماية العرض :

أكد الاسلام حرمة العرض والكرامة للانسان ، مع حرمة الدماء والأموال ، وقد أعلن النبى ﷺ ذلك فى حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة فى البلد الحرام ، والشهر الحرام ، واليوم الحرام . « ان الله حرم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم » (رواه الشيخان)

فلا يجوز أن يؤذى انسان فى حضرته ولا أن يهان فى غيبته ، سواء أكان ذلك الايذاء للجسم بالاعتداء أم للنفس بالقول .

لقد حرم الاسلام أن يضرب انسان بغير حق ، وأن يجلد ظهره بغير حد ، وأنذر باللعنة من ضرب انسانا ظلما ، ومن شهده يضرب ولم يدفع عنه ، وبهذا حمى الانسان من الايذاء . كذلك حرم الاسلام الايذاء الأدبى للانسان .. فحرم الهمز واللمز والسخرية والغيبة وسوء الظن بالآخرين ، ونزلت فى ذلك آيات بينات ورويت أحاديث عن سيد المرسلين محمد ﷺ . قال تعالى :

● **« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون » .** (المؤمنون : ١ـ٣)

● **« يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .** (النور : ٢٤)

● **« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا .. »** (الحجرات : ١٢)

● **« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم » .** (القلم : ١٠ ـ ١١)

● **« ويل لكل همزة لمزة » .** (الهمزة : ١)

● **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب .. »** (الحجرات : ١١)

● « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين » •
(المطففين : ٢٩ — ٣١)

● « •• ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ••
(آل عمران : ١٥٩)

● « •• وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » • (الفتح : ١٢)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » •
(متفق عليه)

— « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » • (رواه البخارى)

— « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » •
(رواه الطبرانى والبيهقى)

— « اياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا كما أمركم • المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره • » • (رواه البخارى ومسلم)

— « لا يدخل الجنة نمام » • (متفق عليه)

— « من رد عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار » • (رواه أحمد)

— « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذىء » •
(رواه الترمذى)

— عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : أى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » • (متفق عليه)

ولم يكتف الاسلام بحماية الانسان فى حياته ، فكفل له الاحترام بعد مماته ، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه ، والنهى عن

كسر عظامه أو الاعتداء على جثته ، ما لم تدفع الى ذلك ضرورة — كمعرفة أسباب القتل (فى الطب الشرعى) — مما يستلزم تشريح الجثة أو كسر بعض العظام . وجاء فى الحديث النبوى الشريف :

— « كسر عظم الميت ككسره حيا » . **(رواه أحمد وأبو داوود)**

وكما حمى جسمه بعد الموت حمى عرضه وسمعته أيضا ، لئلا تلوكها الألسن . قال رسول الله ﷺ :

— « لا تذكروا موتاكم الا بخير » . (رواه أبو داوود)

* * *

٣ — حق الكفاية التامة :

من حق كل انسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة ، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج اليه الانسان فى معيشته . والواجب أن يكون للانسان دخل كاف يحقق كفايته منه ، عن طريق الكسب المشروع من زراعة أو تجارة أو صناعة أو حرفة ، سواء عمل الانسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافىء جهده .

فاذا لم يكن للانسان دخل يكفيه ، كان على أقاربه الموسرين أن يتكفلوا به ، لأنه جزء منهم ، وهم جزء منه . قال تعالى :

« .. وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. »

(الأنفال : ٧٥)

وان لم يكن له أقارب موسرون ، يستطيعون حمله معهم ، وجبت كفايته من الزكاة ، التى فرضها الله على المسلمين ، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم : فهى من الأمة واليها .

والزكاة عبادة مقترنة بفريضة الصلاة ، وهذه العبادة لم يختص بها الاسلام وحده ، بل هى فريضة فى شرائع الأمم السابقة .. فهؤلاء أنبياء الله ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب يذكر القرآن الكريم عنهم فى سورة الأنبياء :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » . (الأنبياء : ٧٣)

* * *

وهذا نبى الله اسماعيل يقول القرآن الكريم عنه فى سورة مريم :

« وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ٠٠ » (مريم : ٥٥)

وهذا عيسى عليه السلام يقول :

« ٠٠ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » ٠ (مريم : ٣١)

ولقد جعل الله سبحانه ايتاء الزكاة شرطا لتكفير السيئات :

« ٠٠ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ٠٠ »

(المائدة : ١٢)

ورحمة الله وسعت كل شىء ، ولكن الله سبحانه خصصها للذين يتقون ويؤتون الزكاة :

« ٠٠ ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ٠٠ » (الأعراف : ١٥٦)

ولم يعتبر القرآن الكريم المسلم مسلما تحترم اخوته من المسلمين الا بالتوبة واقامة الصلاة وايتاء الزكاة :

« فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ٠٠ »

(التوبة : ١١)

والقرآن الكريم اعتبر الدين القيم من شروطه الزكاة :

« ٠٠ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » ٠

(البينة : ٥)

ولقد أثنى الله على المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ووصفهم بالفلاح :

« قد أفلح المؤمنون ٠ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ٠ والذين هم عن اللغو معرضون ٠ والذين هم للزكاة فاعلون » ٠

(المؤمنون : ١ — ٤)

وقد أنذر الله سبحانه الذين لا يدفعون الزكاة ووصفهم بالمشركين ونفى عنهم الايمان باليوم الآخر :

« .. وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافـــرون » . (فصلت : ٦ — ٧)

والزكاة لا يمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل الا اذا جمعت بواسطة « العاملين عليها » . وهذه الفريضة لا يمكن التساهل بها لأن الاسلام يقوم على المجتمع المتكافل المتعاون على البر والتقوى ، لا على الأنانية والاثم والعدوان . وفى الحديث النبوى الكريم :

— « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجســد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضـــاء بالســـهر والحمى » . (رواه البخارى)

— « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه . من كان فى حاجــة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بهــا كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (رواه البخارى ومسلم)

— « الصدقة تسد سبعين بابا من السوء » . (رواه الطبرانى)

— « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » . (رواه البخارى)

— « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهــو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » . (رواه البخارى)

— « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » . (رواه أحمد)

— « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدوا للبلاء الدعاء » . « رواه الطبرانى)

ان الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للانسان الفقير ، بـل لتحقيق تمام الكفاية له ولمن يعول من أهل وأقرباء •• فالحد الأدنى المطلوب للفقير فى المجتمع الاسلامى ، ليس هو حد الكفاف : ولا حـد الكفاية ، بل تمام الكفاية • واذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمـام الكفاية للفقراء والمساكين ، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفايـة فقرائهم ، وان لم يفعلوا ذلك من تلقـاء أنفسهم ألزمهم الخليفـة أو الوالى بذلك باسم الشرع الذى أوجب التكافل بين المسلمين ، واعتبرهم كالجسـد الواحد • فليس بمؤمن من بات شبعانا وجاره الى جنبه جائع •

* * *

الفصل الرابع

دين الواقع والعمل

الاسلام هو كلمات الله الباقية لكافة الخلق ، وهو الهداية العامة الخالدة للبشر على اختلاف ألوانهم ، ورحمة الله الشاملة للعالمين ، وهو الحق الذى **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »**[1] . ولهذا ضمنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أينما كانوا ، ومتى كانوا ، وكيف كانوا .. ولا غرو ، أن راعى الاسلام الواقع والشمول والوضوح فى كل ما دعا اليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات .

* * *

دين الواقعية

جاء الاسلام بعقيدة واقعية ، لأنها تصف حقائق قائمة فى الوجود لا أوهاما متخيلة فى العقول .. حقائق يقبلها العقل ، وتستريح اليها النفس ، وتستجيب لها الفطرة السليمة .. فالعقيدة الاسلامية تدعو الى الايمان باله واحد دل على نفسه بآياته التكوينية فى الأنفس والآفاق ، وآياته التنزيلية مما أوحى به الى رسله .

وقد وصف القرآن هذا الاله الواحد بأوصاف ونعته **بأسماء** ، تقنع عقول الفلاسفة والمربين والعلماء كما ترضى عواطف العامة معا . فهى تجمع بين الجلال والجمال ، والقوة والرحمة ، وهى أيضا أسماء وصفات متسقة مع عمله سبحانه فى الكون وصلته بالخلق .. فهو الرحمن

---

(١) فصلت : ٤٢ .

الرحيم ، الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، العليم الحكيم ، البر الكريم ، العفو الغفور الحليم الشكور ، الرزاق الوهاب ، الرؤوف التواب ، ذو الجلال والاكرام •

وهذه الأسماء والصفات تدعو الى الايمان برسول بعثه الله ليختتم به النبوات ، ويتمم به مكارم الأخلاق • رسول هو بشر مثلنا ، لا يتميز عن الناس الا بالوحى ، قال تعالى : **((قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى ••))** (الكهف : ١١٠)

وهو ليس الهاً أو ملكاً ، انما هو انسان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون •• باع واشترى وصادق وعادى ، وسالم وحارب ، وتزوج وأنجب •• كان يرضى ويسخط ، ويفرح ويحزن ، ويحب ويكره • دل على صدقه سيرته الزكية ، ودعوته الهادية • وتأييد الله اياه ، ونصره على أعدائه ، وأثره فى أصحابه وفى العالم من حوله ، والكتاب المنزل عليه الذى تحدى به المعرضين فعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وأعلن أنه محفوظ من الله ، فلم يزل محفوظا الى اليوم ، لم يبدل فيه كلمة ولا حرف •

هذا الكتاب الالهى هو القرآن الكريم المدون فى المصاحف ، المتلو بالألسنة ، المحفوظ فى الصدر ، الذى يخاطب فى الناس عقولهم وقلوبهم معا ، ويستثير فيهم عوامل الرغبة والترهيب معا ؛ فهو بشير ونذير ، يقرن الوعد بالوعيد ، والترغيب بالترهيب ، فيشوق الى الجنة ويخوف من النار • فقد علم منزله تعالى أن الانسان لا يحركه الى الخير ولا يبعده عن الشر الا شوق يحفزه ويدفعه ، أو خشية تحجزه وتمنعه ، وليس كالشوق الى مثوبة الله حافز ، ولا كالخوف من عذابه حاجز •

وفى الايمان بالجزاء الالهى العادل على الخير والشر فى الدنيا ، ثوابا وعقابا فى الأخرى ، ما يغذى الاحساس الفطرى الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذى أفلت من يد العدالة الدنيوية ، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا اليه ولم يجز الا بالتنكر والاضطهاد •• وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، والأبرار والفجار ، والمصلحين والمفسدين ، قال تعالى :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون • وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »•
(الجاثية : ٢١ — ٢٢)

وفى الايمان بالجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب — حسى ومعنوى — مطابقة لواقع الانسان ، من حيث هو جسد وروح ، لكل منها مطالبه وحاجاته ، ومن حيث أن فى الناس من لا يكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم ، كما أن منهم من لا يكفيه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح • لهذا كان فى الجنة الطعام والشراب والحور العين ، ورضوان من الله أكبر •• وكان فى النار سلاسل وأغلال ، وطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولهم فوق ذلك من الخزى والهوان ما هو أشد وأنكى •

* * *

● واقعية العبادات الاسلامية[٢] :

لقد جاء الاسلام بعبادات واقعية ، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحى فى الانسان الى الاتصال بالله ، ففرض عليه من العبادات ما يروى ظمأه ، ويشبع نهمه ، ويملأ فراغ نفسه •• ولكنه راعى الطاقة المحدودة للانسان ، فلم يكلفه ما فوق طاقته أو يعنته أو يحرجه ، قال تعالى :
« •• وما جعل عليكم فى الدين من حرج •• » (الحج : ٧٨)

١ — فلقد راعى الاسلام واقع الحياة وظروفها الأسرية والاقتصادية والاجتماعية ، وما تفرضه على الانسان من طلب الرزق ، والسعى فى مناكب الأرض الذلول • فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة ، بل لم يسمح له بهذا الانقطاع لو أراد ، وانما كلف المسلم عبادات محدودة ، تصله بربه ، ولا تقطعه عن مجتمعه ، يعمر بها آخرته ، ولا تخرب من ورائها دنياه • قال تعالى :

---

(٢) يوسف القرضاوى — **الخصائص العامة للاسلام** • ص ١٤٨ — ١٤٩ •

● « .. فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه .. » .
(الملك : ١٥)

● « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله .. » .
(الجمعة : ١٠)

● « وجعلنا النهار معاشا .. » . (النبأ : ١١)

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .. » .
(التوبة : ١٠٥)

ومن الحديث النبوى الكريم :

— « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .
(رواه البخارى)

— « لا يقبل ايمان بلا عمل ولا عمل بلا ايمان » .
(رواه الطبرانى)

— « اذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم » .
(رواه الطبرانى)

— « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » . (رواه أحمد)

— « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .
(رواه أحمد)

٢ — وعرف الاسلام طبيعة الملل فى الانسان ، فنوعها ولونها .. بين عبادات بدنية كالصلاة والصيام ، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات ، وثالثة جامعة بينهما كالعمرة والحج . وجعل بعضها يوميا كالصلاة ، وبعضها سنويا أو موسميا كالصيام والزكاة ، وبعضها مرة فى العمر كالحج ، ثم فتح الباب لمن أراد مزيدا من الخير والتقرب من الله ، فشرع التطوع بنوافل العبادات ، قال تعالى :

« .. فمن تطوع خيرا فهو خير له .. » . (البقرة : ١٨٤)

٣ — وراعى الاسلام الظروف الطارئة للانسان كالسفر والمرض

ونحوهما ، فشرع الرخص والتخفيفات التى يحبهاالله •• وذلك مثل صلاة المريض قاعدا أو مضطجعا على جنب حسب استطاعته ، وتيمم الجريح اذا كان استعمال المـاء للوضوء يضره ، وافطار المريض فى رمضان مع وجوب القضـاء ، وفطر الحامل والمرضع اذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، وفطر الشيخ الكبير والمرأة العجوز مع الفدية : اطعام مسكين عن كل يوم • ومثل ذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر ، والجمع بين صلاتى الظهر والعصر أو بين المغرب والعشـاء تقديما أو تأخيرا ، وشرعية الفطر للمسافر فى الصيام •• وهـذه الرخص كلها رعاية لواقع الناس وتقديرا لظروفهم المتغيرة وتيسـيرا من الله عليهم ، كما قال فى آية الصوم :

« •• يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر •• » •
(البقرة : ١٨٥)

* * *

● **واقعية الأخلاق الاسـلامية :**

لقد جاء الاسلام بأخلاق واقعية ، راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس •• فاعترفت بالضعف البشرى ، وبالدوافع الانسانية ، وبالحاجات والرغبات البشرية المـادية والمعنوية ••

١ — فلم يوجب الاسلام على من يريد الدخول فيه أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته كما طالبت بعض الأديان الأخرى • بل راعى الاسـلام حاجة الفرد والمجتمع الى المـال ، فاعتبره قواما للحياة • قال تعـالى :

● **« المـال والبنون زينة الحياة الدنيا •• »** • (الكهف : ٤٦)

● **« وتحبون المـال حبا جما »** • (الفجر : ٢٠)

● **« •• وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا »** •
(الاسراء : ٦)

● **« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة •• »** • (البقرة : ٢٦١)

● **« الذين ينفقون أموالهم بالليــل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »** .
(البقرة : ٢٧٤)

وهكذا نجد أن الاسلام يشجع على تنمية الأموال وانفاقها في سبيل الخير . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « ما نفعني مال كمال أبي بكر » . (رواه أحمد)
— « نعم المــال الصالح للرجل الصالح » .
(رواه أحمد والطبراني)

٢ — ولم يرد في القرآن ولا السنة ما جاء في الانجيل من قول المســيح عليه السلام : « أحبوا أعدائكم .. باركوا لاعنيكم .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر .. ومن سرق قميصك فأعطه ازارك » .. فقد يجوز هذا في مرحلة معينة محدودة ، ولعلاج ظــرف خاص يتطلب التسامح ، ولكنه لا يصلح توجيها عاما لكل النــاس ، في كل عصر ، وفي كل بيئة ، وفي كل حال . فان مطالبة الانسان العادي بمحبة عدوه ومباركة لاعنه ، قد يكون شــيئا فوق ما يحتمله . ولذلك اكتفى الاسلام بمطالبة المسلم بالعدل مع عدوه . قال تعــالى :

« .. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .. » . (المــائدة : ٨)

ولقد تجلت واقعية الاسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها دون طغيان أو ظلم ، فأقر بذلك مرتبة العدل ، ودرء العدوان ، ولكنه — في ذات الوقت — حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء ، على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها ، لا فريضة يلزم بها . وهــذا واضح في قوله تعــالى :

● **« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين »** . (الشورى : ٤٠)

● **« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »** . (النحل : ١٢٦)

٣ — ومن واقعية الأخلاق الاسلامية أنها أقرت التفاوت الفطرى والعملى بين الناس .. فليس كل الناس فى درجة واحدة من حيث قوة الايمان . والالتزام بما أمر الله به من أوامر ، والانتهاء عما نهى عنه من نواه ، والتقيد بالمبادىء والقيم والمثل العليا .. فهناك مرتبة الاسلام ، ومرتبة الايمان ، ومرتبة الاحسان .. وهناك الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، كما أرشد لذلك القرآن الكريم . « فالظالم لنفسه » هو المقصر ، التارك لبعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات . « والمقتصد » هو المقتصر على فعل الواجبات ، وعلى ترك المحرمات ، وان فعل المكروهات . « والسابق بالخيرات » هو الذى يزيد على فعل الواجبات ، أداء السنن والمحببات ، وعلى ترك المحرمات وترك الشبهات والمكروهات ، بل ربما يتنازل عن بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره . والى هؤلاء يشير قوله تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير » . (فاطر : ٣٢)

٤ — ومما يستكمل هذا المعنى ، أن الأخلاق الاسلامية لم تفترض فى أهل التقوى أن يكونوا براء من كل عيب ، معصومين من كل خطأ أو ذنب ، كأنما هم الملائكة أولوا أجنحة .. بل قدرت أن الانسان مكون من جسد وروح ، فاذا كانت الروح تعلو به تارة ، فان الجسد يهبط به طورا . ومزية المتقين انما هى فى التوبة والرجوع الى الله سبحانه ، كما وصفهم فى القرآن الكريم بقوله :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

(آل عمران : ١٣٣ — ١٣٥)

٥ — ومن واقعية الأخلاق الاسلامية ، أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب ، فأباحت من أجلها مالا يباح فى ظروف السلم .. كهدم المبانى ، أو تحريق الأشجار ونحوها ، ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الاسلامى وعدده وعتاده وخططه ، فان الحرب خدعة .

* * *

● **واقعية التربية الاسلامية :**

التربية الاسلامية كذلك تربية واقعية تتعامل مع الانسان كما هو .. لحما ودما ، وفكرا وشعورا ، وانفعالا ووجدانا ، وروحا وتحليقا .

١ — لما رأى أحد الصحابة — واسمه حنظلة — أنه يكون مع أسرته وأهله فى حال تغاير تلك التى يكون عليها فى حضرة الرسول ﷺ ، من حيث الصفاء والشفافية والشعور بخشية الله تعالى . فرأى فى هذا التباين لونا من النفاق . فخرج يعدو فى الطريق وهو يقول عن نفسه : نافق حنظلة ، حتى انتهى الى الرسول ﷺ ، وشرح له ما يحس به من تباين حاله عنده عن حاله فى البيت . فأجابه الرسول بقوله : « انكم لو بقيتم على الحال التى تكونون عليها عندى لصافحتكم الملائكة فى الطرقات ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » [٣] . ومن هنا جاء المثل العامى الذى يقول : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك » .

وعلى هذا النهج من الحياة الواقعية المتوازنة يربى الاسلام المسلم ، فلا يدعه يغرق فى اللهو الى أذنيه فلا يبقى شىء لربه ، كما لا يدعه يغلو فى التعبد فلا يبقى له شىء لقلبه .

٢ — ومع أن الاسلام لا يقر بأن أحدا يولد ملوثا بالخطيئة ، نراه يعترف بأثر البيئة وخطرها ، وبخاصة البيئة الأسرية ، فهى التى تشكل عقيدة الطفل واتجاهه الدينى الأول خلال مرحلة التطبيع الاجتماعى .

---

(٣) رواه مسلم .

وفى الحديث النبوى الشريف :

« كل مولود يولد على الفطـــرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . (رواه البخارى)

ولهذا حمل الاسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم وحسن تربيتهم ، قال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجـــارة .. » . (التحريم : ٦)

وقال رسول الله ﷺ عليه وسلم :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. والرجل فى أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته » . (متفق عليه)

٣ — ويهتم الاســـلام بسن الطفولة ، لأنها أكثر قابلية للتعليم والتأثر والمحاكاة ، وهنا يأمر الآباء والمربين بتدريب الأطفـــال على الطاعات وأداء الفرائض وفعل الخيرات ، متى بلغوا سن التمييز ، وقد حددها الحديث النبوى الكريم بالسابعة ، كما أمر بأخذهم بالحزم والشدة اذا قاربوا المراهقة ، وذلك اذا أتموا العاشرة . وفى هـــذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« مروا الصبى بالصلاة لسبع ، واضربوه على تركها لعشر » . (رواه الترمذى)

والضرب هنا ليس مقصودا لذاته ، وانما المراد به اشعار الولد بأهمية ما يؤمر به ، وجدية الأب فى آمره به ، وحرصه على تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه . والضرب المطلوب أن يؤلم ويوجع ، ولكنه لا يشوه ولا يجرح ، ولا يؤذى ايذاء شديدا . والاسلام يقرر هـــذا للضرورة أو للحاجة .

* * *

● واقعية الشريعة الاســـلامية :

لقد جاء الاسلام بشريعة واقعية ، لم تغفل الواقع فى كل ما أحلت وحرمت ، ولم تهمل هـــذا الواقع فى كل ما وضعت من أنظمة وقوانين

للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللانسانية جمعاء • ومن مظاهر هـذه الواقعية ما يأتى :

١ — أن الشريعة الاسلامية لم تحرم شـيئا يحتاج اليه الانسان فى واقع حياته ، كما لم تبح له شـيئا يضره فى الواقع •• ومن ثم أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات ، معلنا اباحتها للبشر جميعا بشرط القصد والاعتدال وعدم الاسراف فى استخدامها • قال تعالى :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عنـد كل مسـجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيامة •• » • (الأعراف : ٣١ — ٣٢)

٢ — ومن واقعية الشريعة أنها قدرت الضرورات — التى نعرض للانسان وتضغط عليه — حق قدرها ، فرخصت فى تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة • وقرر فقهـاء الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات ، استنادا الى ما جاء فى القرآن الكريم عند ذكر الأطعمة المحرمة ، كقوله تعالى :

« انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » •
(البقرة : ١٧٣)

٣ — ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الانسان أمام كثير من المحرمات ، فسدت الباب اليها كلية ، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها ، كما فى الخمر ، كما أنها اعتبرت ما يوصـل الى الحرام حراما ، منعا للذريعة ، واقرارا بواقع الكثير من البشر الذين لا يملكون أنفسهم اذا فتح أمامهم الباب الى طريق الحرام • ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية اغلاقا لباب قد تهب منه رياح الشر • ومثل ذلك النظر بشهوة الى الجنس الآخر لأن العين رسول القلب •

٤ — ومن واقعية الشريعة الاسـلامية أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الانسان ، فلم تهملها أو تستخف بها •• فشرعت اشباع

الدافع الجنسى بطريقة نظيفة ، تضمن بقاء الانســان وصيانة كرامته وارتقائه عن الحيوان ، وذلك بتشريع « نظام الزواج » • وقد أشار القرآن الى ذلك بعد أن ذكر ما حرم الله من النساء وما أحله وراء ذلك بشرطه ، ثم قال :

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم ســنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيــم • والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما • يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا » • (النساء : ٢٦ — ٢٨)

والمقصود بضعف الانسان فى هــذا المقام هو ضعفه أمام الغريزة الجنســية •

٥ — وانطلاقا من هــذه النظرة الواقعية للحياة والانسان ، كانت اباحة تعدد الزوجات كما شرعها الاسلام •• فما دام فى الزوجات من يعتريها المرض ويطول ، ومن ترغب عن الرجل ولا تقبل عليه أو تستجيب له الا بصعوبة ، وما دام معظم الرجال لا يستطيعون التحكم فى دوافعهم الجنســية ، فلم لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال بدلا من البحث عن الحرام فى الخفاء ؟

واذا كان من النساء من ابتليت بالعقم ، وفى الرجال من يكون قوى الرغبة فى الانجاب ، فلماذا لا نتيح له تحقيق رغبته فى الانجاب بالزواج من امرأة أخرى ولود ، بدلا من تحطيم قلب الأولى بالطلاق أو قهر رغبة الرجل فى الانجاب بتحريم الزواج الثانى عليه ؟

وقد نظمت الشريعة الاسلامية تعدد الزوجات بقوله تعــالى :

« •• فانكحوا ما طاب لكم من النســاء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا! » •

(النساء : ٣)

٦ — ومن واقعية الشريعة الاسلامية اباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين ، هــذا مع تعظيم الاسلام لشأن العلاقة الزوجية واعتبار هــذا الرباط « ميثاقاً غليظا » • واعتبار الأصل فى الطلاق

هو الحظر والتحريم ، كما تدل على ذلك الدلائل من القرآن والسنة •
قال تعالى فى شأن النساء الناشزات :

« •• واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا •• » •
(النساء : ٣٤)

وجاء فى الحديث :
« أبغض الحلال الى الله الطلاق » • (رواه أبو داوود)

ومع هـذا ، أثبت الواقع أن من الزواج ما لا يصحبه التوفيق ، وقد أمر الاسلام الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة للشعور بالكراهية ان أحسوا بها :

« •• وعاشروهن بالمعـروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » • (النساء : ١٩)

كما أمر الاسلام الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز بكل الوسائل حتى تعود الى الموافقة والطـاعة ، وأمر المجتمع أن يتدخل للتحكيم والاصلاح عن طريق « مجلس عائلى » ، قال تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما •• » • (النساء : ٣٥)

ومع هـذا قد تستحكم النفرة ، ويتفاقم النزاع ، وتخفق كل وسائل الاصلاح والتحكيم والتوفيق ، فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته •

٧ — ومن واقعية الشريعة فى المجال الاجتماعى والاقتصادى أنها اعترفت بالدافع الفطرى الواقعى الأصيل فى نفس الانسان ، ألا وهو واقع « حب التملك » • فأقرت مبدأ الملكية الفردية وما يترتب عليه من حق تصرف الفرد فيما يمتلك ، وحق الارث له • ولكنها لم تنس واقعا آخر ، هو مصلحة المجتمع وحقوقه ، وحاجات الفئـات الضعيفة من أبنائه • ولهذا قيدت هـذه الملكية الفردية بقيود شتى منها : الطرق المشروعة لاكتساب المـال ، وفى تنميته ، وفى الاستمتاع به ، وفى

التصرف فيه ، وأوجبت فيه حقوقا لله وللناس أولها الزكاة ، ثم مساعدة ذوى القربى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل .

ان دافع التملك من الدوافع النفسية التى يتعلمها الانسان أثناء التنشئة الاجتماعية .. فالانسان يتعلم من الثقافة التى ينشأ فيها ، ومن خبراته الشخصية ، حب امتلاك المال والعقارات والممتلكات المختلفة التى تشعره بالأمن من الفقر ، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة فى المجتمع .

وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من المواضع الى دافع التملك :

● **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .** (آل عمران : ١٤)

● **« وتحبون المال حبا جما » .** (الفجر : ٢٠)

● **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. »** (الكهف : ٤٦)

● **« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد .. »** (الحديد : ٢٠)

وقال تعالى فى شأن الصدقات والزكاة :

● **« خذ من أموالهم صدقة تطهركم وتزكيهم بها .. » .**
(التوبة : ١٠٣)

● **« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » .** (التوبة : ٦٠)

● **« .. لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم .. » .**
(المائدة : ١٢)

● **« .. والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » .** (النساء : ١٦٢)

● « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ..** » . (النور : ٣٧)

٨ — ومن دلائل الواقعية فى الشريعة الاسلامية جملة أمور عامة نلمحها فى أصولها وقواعدها الأساسية واتجاهاتها ، ومن هذه المبادىء :

(ا) **التيسير ورفع الحرج** : التيسير مبنى على رعاية ضعف الانسان ، وكثرة أعبائه ، وتعدد مشاغله ، وضغط الحياة عليه . والخالق — سبحانه — رؤوف رحيم ، لا يريد بعباده عنتا ولا رهقا ، انما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال . ولقد جاء الاسلام عاما لكل الناس ، فى كل زمان ومكان ، لذلك لا بد أن يتجه الى التيسير والتخفيف ، ليتسع لكل الناس ، وان اختلف بهم المكان والزمان والحال .. فالقرآن ميسر الذكر ، والعقيدة ميسرة الفهم ، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق ، ليس فيها تكليف يتجاوز طاقة المكلفين . وقد أعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة فى أكثر من آية ، فقال :

● « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها ..** » . (البقرة : ٢٨٦)

● « **.. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ..** » .
(البقرة : ١٨٥)

● « **.. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** » . (المائدة : ٦)

(ب) **مراعاة سنة التدرج** : ومن تيسير الاسلام على البشر أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم ، ايجابا أو تحريما .. فحين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت الى الصورة الأخيرة . فالصيام فرض أولا على التخيير ، فمن شاء صام ومن شاء أفطر وفدى ، أى أطعم مسكينا عن كل يوم يفطره ، قال تعالى :

« **.. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون** » .
(البقرة : ١٨٤)

ثم أصبح الصيام فرضا لازما لكل صحيح مقيم لا عذر له :

« •• فمن شهد منكم الشهر فليصمه •• » • (البقرة : ١٨٥)

والمحرمات كذلك ، لم يأت تحريمها دفعة واحدة ، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس وتغلغلها فى الحياة الفردية والاجتماعية • فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم ، انما الحكمة اعدادهم نفسيا وذهنيا لتقبلها ، وأخذهم بقانون التدرج فى تحريمها ، حتى اذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعا الى تنفيذه •• وخير مثال نسوقه لذلك هو الطريقة التى اتبعها القرآن فى تحريم الخمر •• فقد عمد القرآن فى أول الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، دون أن يقوم بتحريمها تحريما تاما ، ثم تدرج بهم الى التحريم التام • فكانت أول آية نزلت فى الخمر تشير الى أن مضارها أكثر من منافعها ، وحث على الامتناع عن شربها • قال تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما •• » • (البقرة : ٢١٩)

ثم تدرج القرآن بعد ذلك الى درجة أشد حزما ، فحرم على المسلمين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ، وفى هذا تحريم لشرب الخمر فى معظم أوقات اليوم • قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون •• » • (النساء : ٤٣)

فالامتناع عن الخمر خمس أوقات فى اليوم انما كان بمثابة تدريب للمسلمين على الاقلاع عن شرب الخمر ، وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسيا للانتقال الى المرحلة التالية وهى الامتناع نهائيا عن شرب الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التى حرمت الخمر تحريما تاما :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » • (المائدة : ٩٠ — ٩١)

* * *

دين الشـــمول

« الشمول » من الخصائص التى تميز بها الاسلام عن كل ما عرفه النـــاس من الأديان والمذاهب والفلســفات ، بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد .. انه شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب كيان الانسان كله (٤) ..

أولا ـــ رســالة الزمن كله :

انها رسالة لكل الأزمنة والأجيال ، وليست رسالة موقوتة بعصر معين ينتهى أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن فى رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ ، فقد كان كل نبى يبعث لمرحلة زمنية محدودة ، حتـــى اذا ما انقضت بعث الله نبيا آخر .. أما محمـــد ﷺ فهو خاتـــم النبيين . ورسالته هى رسالة الخلود التى قدر الله بقاءها الى أن تقوم الساعة . فليس بعد الاسلام شريعة ، ولا بعد القرآن كتاب ، ولا بعد محمد نبى . ولم يسبق لنبى قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رســـالته هى الخاتمة وأن لا نبى بعده . انها ـــ فى جوهرها وأصولها ـــ رسالة كل نبى أرسل ، وكل كتاب أنزل .. فالأنبياء جميعا جاءوا بالاسلام ، ونادوا بالتوحيد ، وهـــذا ما يقرره القرآن فى وضوح وتأكيد ..

● **« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »** . (الأنبياء : ٢٥)

● **« .. ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .. »** . (النحل : ٣٦)

وكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون ، ودعوا الى الاسلام :

قال نوح : **« .. وأمرت أن أكون من المسلمين »** .
(يونس : ٧٢)

---

(٤) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** ، ص ٩٥ .

وابراهيم واسماعيل قالا : **« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ٠٠ »** ٠ (البقرة : ١٢٨)

ووصى ابراهيم بنيه ويعقوب : **« ٠٠ يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون »** ٠ (البقرة : ١٣٢)

ودعا يوسف ربه فقال : **« ٠٠ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »** ٠ (يوسف : ١٠١)

وموسى قال : **« ٠٠ يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين »** ٠ (يونس : ٨٤)

وقال الحواريون لعيسى : **« ٠٠ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »** ٠ (آل عمران : ٥٢)

من هذا يتضح أن رسالة الاسلام — فى جوهرها — رسالة كل نبى جاء من عند الله منذ عهد نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام ٠٠ انهـا رسالة الزمن ، كل الزمن ٠

* * *

ثانيا — رسالة العالم كله :

واذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر أو جيل — فهى كذلك غير محدودة بمكان ، ولا بأمة ، ولا بشعب ، ولا بطبقة ٠٠ انها الرسالة الشاملة التى تخاطب كل الأمم ، وكل الأجناس ، وكل الشعوب ، وكل الطبقات ٠٠ انها ليست رسالة لشعب خاص ، يزعم أنه وحده شعب الله المختار ، وأن الناس جميعا يجب أن يخضعوا له ٠٠ وليست رسالة لاقليم معين يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ٠٠ وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو السير فى ركابها واتباع أهوائها ٠ انها رسالة الناس جميعا ، وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها ٠ انها هداية رب الناس لكل الناس ، ورحمة الله لكل عباده ٠ وهذا ما أوضحه القرآن الكريم بقوله :

● **« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ٠٠ »** (الأعراف : ١٥٨)

● « **وما أرسلناك الا رحمــة للعالمين** » • (الأنبياء : ١٠٧)
● « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** » •
(الفرقان : ١)
● « **ان هو الا ذكر للعالمين** » • (سورة ص : ٨٧)

* * *

ثالثا ــ رسالة الانسان كله :

انها رسالة الانسان من حيث هو انسان متكامل • فهى ليست رســالة لعقل الانسان دون روحه ، ولا لروحه دون جسمه ، ولا لأفكاره دون عواطفه ، أو غير ذلك • انها رسالة الانسان كله •• روحه وعقله ، وجسمه ، وضميره ، وارادته ، ومشاعره •• فالانسان ــ كما خلقه الله ــ ليس مجزءاً أو مشطوراً ، فهو « كل » متكامل ، و «كيان » واحد ، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا عقل عن عاطفة ، فهو وحدة متكاملة لا تتجزأ من الجسم والروح والعقل والنفس والضمير • ولهذا يجب أن تكون غايته واحدة ، ووجهته واحدة ، وطريقه واحدا ، وهذا ما صنعه الاسلام • • فقد جعل الغاية الله سبحانه ، والوجهة الآخرة •

ان الاسلام هو رسالة الانسان كله ، وهو رسالته كذلك فى كل مراحل حياته ووجوده ، وهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الاسلامى • هــذه الرسالة هداية الله ، تصحب الانسان أنى اتجه أو سار فى أطــوار حياته •• فهى تصحبه طفلا ، ويافعا وشابا ، وكهلا وشيخا ، وترســم له فى كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذى يحبه الله ويرضــاه • فلا عجب أن تجد فى الاسلام أحكاما وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده ، وتجد أحكاما تتعلق بارضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه • قال تعالى :

« **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتــم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثــل ذلك ، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان**

أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير »

(البقرة : ٢٣٣)

وبعد ذلك نجد أحكاما تتعلق بالانسان صبيا وشابا وكهلا وشيخا ، فلا توجد مرحلة من حياته الا وللاسلام فيها توجيه وتشريع • وأكثر من ذلك أنها تعنى بالانسان قبل أن يولد ، وبالانسان بعد أن يموت • • من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ، ودفنه ، وشرعية العزاء فيه ، والدعاء له ، وتنفيذ وصاياه ، وقضاء ديونه •

« ان الاسلام هو العقيدة المثلى للانسان منفردا أو مجتمعا ، وعاملا لروحه أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه ، أو ناظرا الى آخرته ، ومعطيا حق نفسه ، أو معطيا حق حاكمه وحكومته • فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة . ولا يكون مسلما لأنه روح تتكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى •• ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها ، مجتمعة لديه فى جميع حالاته ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع •• ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية ، وظواهرها الاجتماعية ، هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل ، فيستريح من « فصام » العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق »(٥) •

* * *

● شمول الأخلاق فى الاسلام :

يبرز الشمول كذلك فى ميدان الأخلاق والفضائل •• فالأخلاق الاسلامية ليست هى التى تعرف عند بعض الناس « بالأخلاق الدينية »

---

(٥) عباس محمود العقاد ، **القرآن والانسان** ، « موسوعة العقاد الاسلامية ـ المجلد الرابع » . (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٧١) ، ص ٥٥٦ .

التى تتمثل فى أداء شعائر التعبد ، واجتناب شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ونحو ذلك لا غير . ان الأخلاق الاسلامية تسع الحياة بكل جوانبها وكافة مجالاتها . ان الأخلاق فى الاسلام لم تدع جانبا من جوانب الحياة الانسانية روحية أو جسدية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو عاطفية ، فردية أو اجتماعية ، الا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع [٦] .

١ — ان من أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد من كافة نواحيه :

(ا) جسما له ضروراته وحاجاته ، بمثل قوله تعالى :

« .. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .. » (الأعراف : ٣١)

وقول الرسول ﷺ : « ان لبدنك عليك حقا » . (رواه الشيخان)

(ب) وعقلا له مواهبه وآفاقه ، يقول تعالى :

● **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض .. »**

(يونس : ١٠١)

● **« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. »** (سبأ : ٤٦)

(ج) ونفسا لها مشاعرها ودوافعها ، قال تعالى :

● **« قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . »**

(الشمس : ٩ — ١٠)

* * *

٢ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالأسرة :

(ا) كالعلاقة بين الزوجين :

« .. وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . (النساء : ١٩)

---

(٦) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** . ص ١٠٦ — ١٠٧

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد :

● « ووصينا الانسان بوالديه احسانا •• »

(الأحقاف : ١٥)

● « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا » • (الاسراء : ٣١)

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام :

● « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى •• »

(النحل : ٩٠)

● « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل •• »

(الاسراء : ٢٦)

* * *

٣ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع :

(ا) فى آدابه ومجالاته ، مثل :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » • (النور : ٢٧)

(ب) وفى اقتصاده ومعاملاته ، مثل :

● « ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » • (المطففين : ١ — ٣)

● « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله •• »

(البقرة : ٢٨٢)

(جـ) وفى سياسته وحكمه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل •• » • (النساء : ٥٨)

* * *

٤ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالكون الكبير :

(ا) من حيث أنه مجال التأمل والتفكر والاستدلال بما فيه من ابداع واتقان ، على وجود مبدعه وقدرته ، وعلى علمه وحكمته ، قال تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك •• » •

(آل عمران : ١٩٠ — ١٩١)

(ب) ومن حيث أنه مجال للانتفاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الانسان ، وما أسبغ فيه من نعم تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها ، كما قال تعالى :

● **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة •• » •** (لقمان : ٢٠)

● **« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله •• »**

(البقرة : ١٧٢)

* * *

٥ — وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذى منه كل النعم وله كل الحمد :

« الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين • اياك نعبد واياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم » •

(الفاتحة : ٢ — ٦)

فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله ، وأن ترجى رحمته الواسعة ، وأن يخشى عقابه العادل يوم الحساب ، وهو وحده الذى يستحق أن يعبد ويستعان وأن تطلب منه الهداية الى الصراط المستقيم •

وبهذا ، يتجلى شمول الأخلاق الاسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها • ولقد كانت نظرة الاسلام جامعة محيطة مستوعبة ، لأنها ليست نظرية بشرية ، بل وحى من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا •

* * *

ديــن العمــل والانتـــاج

ان الايمان الصادق ليس مجرد ادراك ذهنى أو تصديق وجدانى غير متبوع بأثر عملى فى الحياة ، بل انه اعتقاد وعمل واخلاص • ومهما اختلف علماء الكلام والجدل فى العقائد حول مفهوم الايمان وصلة العمل به : أهو جزء من مفهومه أم شرط له أم ثمرة من ثمراته ، فانهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الايمان الكامل • وقد روى فى الأثر ما يصور لنا حقيقة الايمان :

« ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » • (رواه الديلمى)

وقد ذكر القرآن الكريم الايمان مقرونا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته • ولم يكتف بمجرد العمل ، ولكنه طلب عمل « الصالحات » وهى كلمة تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به الفــرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا[٧] •

ولا يذهب الظن أو الوهم بأحد ، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل الصالح مقصور على الآخرة وحدها •• فان قوانين الله فى الجزاء واحدة ، ورب الدنيا والآخرة واحد ، فالله تعالى يقول :

● « •• انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » • (الكهف : ٣٠)

● « •• فنعم أجر العاملين » • (الزمر : ٧٤)

● «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»• (الزلزلة : ٧ — ٨)

* * *

---

(٧) يوسف القرضاوى • **الايمان والحياة** . ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

● **نظرة الاسلام الى العمل(٨) :**

يقول القرآن الكريم :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » •• (يس : ٣٣ — ٣٥)

تطالب هذه الآيات الثلاث من الانسان أن يشكر الله سبحانه بالايمان به ، على نعمته عليه ، وهى نعمه مزدوجة •• أولا ، أن أعده للعمل المثمر الناجح فى حياته ، بحيث يعتمد على صلاحيته للعمل والانتاج ، بالاضافة الى ارادة الله في معاونته • ثانيا ، أن ارادة الله سبحانه هيأت له من البيئة التى يعيش فى كنفها ما يساعده على الحياة ، ان هو ضم الى هذه الارادة مباشرة العمل الذى أعد له منذ نشأته •

والعمل اليدوى فى الزراعة مثلا : **« وما عملته أيديهم »** •• ركن أساسى فى انتاج المحاصيل الزراعية ، وما يتبعها من تنمية للثروة الحيوانية • وارادة الله سبحانه قبل ذلك ، أو مع ذلك ، هى ركن هام فى انجاز ما تأتى به الأرض من ثمرات للانسان • ان جعل العمل اليدوى أساسا فى الانتاج لا يسمح للمؤمن أن يلجأ الى « التواكل » ، الذى هو طريق سلبى فى الحياة • فهو طريق انتظار الرزق وتوقعه دون بذل أى مجهود مع اهمال العمل أو تركه • والاسلام يدعو الى التوكل على الله ، ولكنه لا يعترف بالتواكل والتراخى أو يشجعه ، فيقول المولى عز وجل :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور » • (الملك : ١٥)

والتوكل على الله هو استنفاذ الانسان لكل امكاناته فى التفكير بطريقة سليمة ، والترجيح بين عدة طرق يختار أفضلها لتنفيذ ما صمم

---

(٨) سيد عبد الحميد مرسى ، **الشخصية المنتجة** ، « سلسلة دراسات نفسية اسلامية (٣) » . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥) ص ٢٨ — ٣٥ .

عليه من عمل . وهنا يبدأ السير فى العمل ، متوكلا على الله ، ومعتمدا عليه سبحانه فى مساعدته . فالتوكل على الله والاعتماد عليه لا يقع فى فراغ ، وانما يأتى بعد خطوات من نشاط الانسان فى تفكيره واختياره وعزمه وتصميمه .

وهكذا نجد ثلاثة عناصر لجعل حياة الانسان ايجابية ومثمرة :
العنصر الأول : مباشرة الطاقة على العمل والانجاز والانتاج التى أمده الله بها .

العنصر الثاني : التوكل على الله ، والالتجاء اليه ، وطلب مساعدته ، عند تنفيذ العمل .

العنصر الثالث : الايمان بالله ، لدفع الضرر والاستكبار والطغيان فيما ينتجه فى مجال العمل [٩] .

وعمل الانسان هو وظيفة عقله وبدنه ، فان لم يباشر الانسان العمل فانه يحول دون أداء وظيفته فى الحياة .. فعقل الانسان لا بد أن يفكر ، حيث ان الانسان يتميز عن الحيوان بما وهبه الله تعالى من عقل ، ومن قدرة على التفكير تمكنه من النظر فى الأمور والبحث فى الأشياء والظواهر والأحداث ، واستخلاص الكليات من الجزئيات ، واستنباط النتائج من المقدمات . ان قدرة الانسان على التفكير هى التى جعلته أهلا للتكليف بالعبادات ، وتحمل مسئولية الاختيار والارادة ، وهذا هو ما جعله أهلا لخلافة الله تعالى فى الأرض [١٠] . قال تعالى :

● « **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..** » .
(العنكبوت : ٢٠)

● « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ..** »
(يونس : ١٠١)

---

(٩) محمد البهى ، **القرآن الكريم .. يقول** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩) ، ص ٧٩ — ٨٠ .

(١٠) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** . ص ١٢٤ .

● **« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء .. » .** (الأعراف : ١٨٥)

● **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .** (الحج : ٤٦)

● **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .**

(البقرة : ١٦٤)

ففى هذه الآيات وأمثالها دعوة صريحة الى النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمى فى جميع المخلوقات ، وفى جميع الظواهر الكونية . ولم يحث القرآن الانسان على التفكير والبحث العلمى فى الظواهر الطبيعية فقط ، وانما حثه أيضا على التفكير فى نفسه ، فى أسرار تكوينه البيولوجى والنفسى ، وهو بذلك يدعوه الى ارتياد ميادين العلوم البيولوجية والفسيولوجية والطبية والنفسية . قال تعالى :

● **« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى .. » .** (الروم : ٨)

● **« فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » .** (الطارق : ٥ — ٧)

● **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. »** (فصلت : ٥٣)

وقد بين القرآن الكريم أهمية التفكير فى حياة الانسان ، ورفع من قيمة الانسان الذى يستخدم عقله وتفكيره ، وحط من شأن من لا يستخدم عقله وتفكيره بأن جعله أدنى درجة من الحيوان . قال تعالى :

● **« ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .**

(الأنفال : ٢٢)

● **« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضــل سبيلا »** • (الفرقان : ٤٤)

فعقل الانسان اذن لا بد أن يفكر ، ومن غير المعقول أن لا يتخذ تفكيره خطا سليما فى الحياة ، بدلا من أن يغلبه الهوى ويجره الــى التفكير فيما يضره أو يوقع الضرر بغيره • ولا يتغلب الهوى على تفكير الانسان الا اذا استسلم الى عدم القيام بالعمل الجدى فى الحياة •• ان بدن الانسان لا بد له أن يتحرك فى اتجاه مثمر ، بدلا من أن تدور حركته فى دائرة ارضاء شهوات النفس وتلبية لذتها ومتعتها • واذا كان العمل وظيفة الانسان ، أى وظيفة جسمه وعقله ، فانه لا يسبب اجهادا له ما دام يتلاءم مع امكاناته الجسمية والعقلية والشخصية ، بل على النقيض من ذلك ، فكثيرا ما يحب الانسان متعته فى العمــل المشبع •

فالقائم بالعمل العقلى يسأم الحياة ويمل القعود دون تفكير ، وصاحب العمل البدنى يغلب علية الضيق ويتملكه الاحساس بالضجر وعدم الرضا ان هو لم يتحرك فى سبيل العمل وينشط لانجازه • ان العمل فى الحياة هو السبيل لتحصيل الرزق والتمكن من العيش ، ولكنــه هو هدف فى ذات الوقت •• فاذا كان لدى الانسان من الثروة ما يمكنه من أن يعيش دون ما حاجة الى الدأب والسعى لكسب القوت ومواجهــة مطالب الحياة اليومية ، فانه على الرغم من ذلك لا يقدر قيمته كانســان ، ولا يحقق ذاته أو يفهم وظيفته فى الحياة على حقيقتها ، اذا توقف عن العمل بحجة عدم حاجته الى مال ، لأنه لا يحقق عندئذ هدف وجوده •

فللانسان هدف فى حياته الانسانية ، ليس هو مجرد العيش لذات العيش أو لمجرد المحافظة على الكيان الفردى ، بل ان هدف الانسان فى الحياة هو الكدح والكفاح •• الكفاح فى سبيل رسالة الحق ، والمقاومة ضد ما يضعف الحق ويقوى الباطل ضده • فرسالة الحق هى رســالة الخير ، ورسالة التعاون المثمر فى الحياة ، ورسالة المحبة بين الناس • فأداء هذه الرسالة هو تحقيق هدف حياة الانسان ، وليس مجرد تحصيل المتع الدنيوية لذاتها • قال تعالى : **« انا جعلنا ما على الأرض زينــة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »** • (الكهف : ٧)

فالقرآن الكريم اذن لا يرى منع الحياة التى نعيشها هدفا وغاية فى ذاتها ، وانما يراها وسيلة لهدف ، ويرى أن من خلالها يكـــون قرب الانسان أو بعده من تحقيق الهدف الانسانى وهو « حسن العمل » • والعمل الحسن هو ما كان خيره للناس جميعا ، أو ما حال دون وقـــوع أضرار بالناس • والفقير فى نظر القرآن هو الذى عجز عن العمل أو لم يجد السبيل اليه ، قال تعالى :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحـــافا •• » • (البقرة : ٢٧٣)

لقد أودع الله فى الكون موارد للثروة وأودع فى الانســـان طاقة للعمل ، وجاء الاسلام ففتح أعين الناس على الكون الفسيح • قال تعـــالى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفـــا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود • ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك •• » •

(فاطر : ٢٧ — ٢٨)

كما فتح الاسلام أعين الانسان على طاقاته الفكرية والنفســـية والحيوية كلها ، قال تعالى : **« وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » •**

(الذاريات : ٢١)

فالأساس الأول الذى يرسيه الاسلام فى تنظيم مجتمعه هو أن يعمل الانسان ليحصل على القوت ، وفى هذا المجال تتابعت أقوال الرسول عليه أفضـــل الصلاة والســـلام •• « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » ، « ان الله يحب العبد المحترف » ، « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » • وتتابعت وصايا الرسول الكريم بالعـــدل فى وفاء حق العامل •• « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » ، ومن الثلاثة الذين يخاصمهم رســـول الانسانية يوم القيامة « رجل

استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره » • وفى ذات الوقت لم يغفل الرسول الكريم أن يلزم العامل بأداء واجبه •• « أن الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » • ولا عجب أن رأينا مجتمع الاسلام الأول — مجتمع المدينة المنورة — يعرض فيه الأنصارى ساكن المدينة على أخيه المسلم المهاجر من مكة الذى ترك ماله فيها أن يشاطره ماله • فيأبى المهاجر الا العمل ويقول : « دلنى على السوق »[١١] •

رأينا فيما تقدم أن الاسلام أمر المسلمين بالعمل وبالسعى فى أرجاء الأرض ليبتغوا من فضل الله ، حتى جعل العمل مقابلا للحياة ، ولا قيمة لحياة المرء فى نظر الاسلام بغير عمل • ان الاسلام يقرر بأن العمل عبادة وفريضة من فرائضه ، فيقول رسول الله ﷺ : « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » • (رواه الطبرانى)

ومن مفهوم الحديث الشريف أن كل عمل هو شريف ما دام فيما أحل الله لعباده من طلب الرزق ، بعيدا عما نهى الله عنه من المحرمات •

ومما مكن لشرف العمل وقيمته واتقانه فى المجتمع الاسلامى أن القرآن الكريم أوضح لنا أن حملة الرسالات الدينية من الأنبياء والمرسلين على مر التاريخ هم فى ذات الوقت رواد فى مجالات العمل المختلفة •• فهذا « نوح » عليه السلام كان رسولا نبيا ، وكان رائدا من رواد الصناعة ، اذ أوحى الله اليه بصنع السفينة التى أنجته هو ومن معه من الطوفان الذى أغرق قومه الكافرين ، فان بدء صناعة السفن على يديه •

و « ابراهيم » أبو الأنبياء ، كان رسولا نبيا ، وكان فى الوقت ذاته يحسن صناعة البناء ، وقد رفع القواعد من البيت الحرام بمكة المكرمة هو وابنه « اسماعيل » •

---

(١١) محمد البهى ، **الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر : مشكلات الأسرة والتكافل** « ط ٣ » . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

و « يوسف » الصديق كان رسولا نبيا حاملا لعهد الله مع آبائه ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وكان فى الوقت نفسه ذا عقل اقتصادى راجح يحسن تدبير أمور الناس المعاشية • فأشار على فرعون مصر فى عهده بأن يزرع سبع سنين دأبا ، ويخزن فائض الزرع وغلته فى هــذه السنوات السبع استعدادا لسنوات الأزمة المقبلة ، التى استشفها بتأويل الرؤيا التى أريها فرعون فى منامه وقصت عليه فى سجنه • ولما استخلصه فرعون لنفسه بعد تأويله لارؤيا ، طلب يوسف أن يوليه منصب القائم على خزائن الأرض فى دولته ليخدم الناس فى مصر بتدبير أمــور معاشهم وأقواتهم ، فكانت رسالته مزدوجة للحياة الروحية والدنيوية •

و « موسى » رشحته قوته البدنية وأمانته ليعمل للنبى شعيب فى رعاية أمواله ويعينه عشر سنوات فى خدمته على أن يزوجه احدى ابنتيه بعد أن قالت : « •• **يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمــين** » • (القصص : ٢٦)

و « داوود » كان نبيا ورائدا من رواد صـــناعة الحديد ، وكان يأكل من عمل يده فى عمل الدروع والصناعات الحديدية • قال تعالى :

« **ولقد آتينا داوود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد • أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ، واعملوا صالحا ، انى بما تعملون بصير** » • (سبأ : ١٠ — ١١)

« وسليمان بن داوود » كان رسولا نبيا ، وكان من المهتمين بصناعة المحاريب والقدور والأوانى ، كما ذكر القرآن الكريم :

« •• **وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير • يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** » • (سبأ : ١٢ — ١٣)

و « محمد » ﷺ — خاتم الأنبياء والمرسلين شرف الشباب بالعمل

فى شبابه برعى الأغنام والاتجار فى مال خديجة أم المؤمنين ، وكان يمشى فى الأسواق كغيره من الناس ويدافع عن الحرمات [١٢] .

* * *

● **العمل فى القرآن والسنة :**

يحث القرآن الكريم على العمل الشريف وأن يكون مصدر الرزق الحلال . قال تعالى :

● **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .**

(التوبة : ١٠٥)

● **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .** (الكهف : ٣٠)

● **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .**

(النحل : ٩٧)

● **« .. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**

(يس : ٣٥)

● **« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .**

(الأحقاف : ١٩)

● **« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**

(يس : ٣٣ — ٣٥)

● **« .. ان الله بما تعملون بصير » .** (البقرة : ١١٠)

---

(١٢) عبد السميع المصرى — **مقومات العمل فى الاسلام** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٩ — ٣٠ .

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « لا يقبل ايمان بلا عمل ولا عمل بلا ايمان » .

(رواه الطبرانى)

— « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

(رواه البخارى)

— عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا عليه السلام نجارا » . (رواه مسلم)

— « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » .

(رواه الطبرانى)

— « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » . (رواه أحمد)

— « ان الله تعالى يحب أن يرى عبده تعباً فى طلب الحلال » .

(رواه الديلمى)

— « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

(رواه أحمد)

— « اذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم » .

(رواه الطبرانى)

— « باكروا فى طلب الرزق والحوائج فان الغدو بركة ونجاح » .

(رواه الطبرانى)

— « أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده » .

(رواه أحمد)

— « أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل كسب مالا من غير حله فدخل به النار » . (رواه البخارى)

— « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده » .

(رواه أحمد)

— « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

(رواه البيهقى)

* * *

الفصل الخامس

دين الوسطية والعدل

من أبرز خصائص الاسلام « الوسطية » ، ويعبر عنها أيضا « بالتوازن » • ونعنى بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله •• ومثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة الروحية والمادية ، والفردية والجماعية ، والواقعية والمثالية ، والثبات والتغير ، وما شابهها • ومعنى التوازن بينها هو أن يفسح لكل طرف منها مجاله ، ويعطى حقه « بالقسط » أو « بالقسطاس المستقيم » ، دون غلو ولا تقصير ، كما أشار الى ذلك القرآن الكريم بقوله :

« والسماء رفعها ووضع الميزان • ألا تطغوا فى الميزان • وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » • (الرحمن : ٧ — ٩)

وهذا فى الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الانسان ، بعقله المحدود ، وعلمه القاصر ، فضلا عن تأثير نزعاته الشخصية وميوله وأهوائه وغلبتها عليه بطريقة شعورية أو لا شعورية • ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر من الافراط أو التفريط ، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ •

ان القادر على اعطاء كل شىء فى الوجود — ماديا كان أو معنويا — حقه بحساب وميزان ، هو الله سبحانه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وأحاط بكل شىء خبرا ، وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة

وعلما •• ولا عجب أن نرى هـذا التوازن الدقيـق فى خلق الله ، وفى أمر الله جميعا ، فهو صاحب الخلق والأمر • فظاهرة التوازن ، تبدو فيما آمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق ، أى فى نظـام الاسلام ومنهجه للحياة ، كما تبدو فى هذا الكون الذى أبدعته يد الله ، فأتقنت كل شيء [١] •

اننا ننظر فى هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار ، والنور والظلام ، والحرارة والبرودة ، والمـاء واليابس •• كلها بقدر وميزان وحساب • لا يطغى شيء منها على مقابله ، ولا يخرج عن حده المقدر له • وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة فى فضاء الكون الفسيح ، ان كلا منها يسبح فى مداره ، ويدور فى فلكه ، دون أن يصدم غيره ، أو يخرج عن مساره • وصدق الله العظيم اذ يقول :

- **« انا كل شيء خلقناه بقدر »** • (القمر : ٤٩)
- **« •• ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »** • (الملك : ٣)
- **« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »** • (يس : ٤٠)
- **« الشمس والقمر بحسبان • والنجم والشـجر يسجدان • والسـماء رفعها ووضع الميزان »** • (الرحمن : ٥ — ٧)

* * *

مظاهر الوسطية فى الاسـلام

ان مزايا الوسطية تتجلى واضـحة فى كل جوانب الاسلام •• فالاسلام وسط فى الاعتقاد •• وسط فى التعبد •• وسط فى الأخلاق والآداب •• وسط فى التشريع والنظام • وسنناقش هـذه الجوانب فيما يلى [٢] :

---

(١) يوسف القرضاوى — **الخصائص العامة للاسلام** • ص ١١٤ — ١١٥

(٢) **المرجع السـابق** ، ص ١٢١ — ١٤١

أولا — وسطية الاسلام فى الاعتقاد :

١ — فهو وسط فى الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون فى الاعتقاد ، فيصدقون بكل شىء ، ويؤمنون بغير برهان •• وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ، ولا نداء العقل ، ولا صراخ المعجزة • فالاسلام يدعو الى الايمان والاعتقاد ، ولكن بما قام عليه الدليل والبرهان اليقينى ، ويرفض ما عدا ذلك ويعتبره من الأوهام ، وشعاره دائما :

« •• قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » • (البقرة : ١١١)

٢ — وهو دين وسط بين الملحدين الذين لا يؤمنون باله قط ، خانقين صوت الفطرة فى صدورهم ، ومتحدين منطق العقل فى رؤوسهم •• وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألهوا الأوثان • فالاسلام يدعو الى الايمان باله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد • وكل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ، فتأليهها شرك وافتراء وضلال مبين :

« ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » • (الأحقاف : ٥)

٣ — وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده ، وما عداه — مما لا تراه العين أو تلمسه اليد — خرافة ووهم •• وبين الذين يعتبرون الكون وهما لا حقيقة له ، وسرابا يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا • فالاسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها ، ولكنه ينتقل من هذه الحقيقة الى حقيقة أكبر هى : من كون هذا الكون ونظمه ودبر أمره ، وهو الله تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك •• » •
(آل عمران : ١٩٠ — ١٩١)

٤ — وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ، ويضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه اله نفسه ، يفعل ما يشاء دون حساب •• وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، فهو كدمية يحرك خيوطها المجتمع أو الاقتصاد • فالانسان فى نظر الاســلام مخلوق مكلف مسئول ، سيد فى الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه :

« •• ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •• » •
(الرعد : ١١)

٥ — وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم الى مرتبة الألوهية أو النبوة للاله •• وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم العذاب • فالأنبياء بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، ويمتهنون الحرف ، ولكثير منهم أزواج وذرية ، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق أن الله منّ عليهم بالوحى ، وأيدهم بالمعجزات :

« قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » • (ابراهيم : ١١)

٦ — وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون الا بالوحى والالهام ، ولا يعترفون للعقل بدور واضح • فالاسلام يؤمن بالعقل ، ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهى • ولكنه يؤمن بالوحى ، مكملا للعقل ، ومعينا له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهاديا له الى ما ليس من اختصاصه ولا هو فى مقدوره من الغيبيات :

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ، وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » • (الروم : ٨)

* * *

ثانيا — وسطية الاسلام فى العبادات :

والاسلام وسط فى عباداته وشعائره بين الأديان والعقائد التى ألغت الجانب الربانى من فلسفتها وواجباتها ، « كالبوذية » التى اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقى الانسانى وحده •• وبين الأديان والعقائد التى طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والانتاج ، « كالرهبانية » المسيحية •

فالاسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة فى اليوم كالصلاة ، أو فى السنة كالصوم ، أو فى العمر مرة كالحج ، ليظل دائما موصولا بالله ، غير مقطوع عن رضاه ، ثم يطلقه بعد ذلك ساعيا منتجا ، يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله بكده وكفاحه • ولعل أوضح دليل نذكره هنا الآيات الآمرة بصلاة الجمعة :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » • (الجمعة : ٩ — ١٠)

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى فى يوم الجمعة •• بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعى الى ذكر الله والى الصلاة وترك للبيع والشراء وغيره من مشاغل الحياة • ثم انتشار فى الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة ، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرا فى كل حال ، فهو أساس الفلاح والنجاح •

* * *

ثالثا — وسطية الاسلام فى الأخلاق :

١ — الاسلام وسط فى الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الانسان ملاكا أو شبه ملاك ، فوضعوا له من القيم والآداب ما يفوق طاقته وينوء به كاهله ، فهم قد أحسنوا الظن بالفطرة الانسانية فاعتبروها خيرا محضا •• وبين غلاة الواقعيين ، الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان ،

فأرادوا له من السلوك ما لا يليق بانسانيته ، وتركوه لينطلق كيف يشاء ، وهم قد أساءوا الظن بالفطرة الانسانية ، فعدوها شرا خالصا .. وكانت نظرة الاسلام وسط بين أولئك وهؤلاء ..

فالانسان فى نظر الاسلام مخلوق مركب .. فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان ، وروحانية الملاك ، قد هدى النجدين ، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين ، اما شاكرا واما كفورا ، فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى ، ومهمته جهاد نفسه وترويضها حتى تتزكى :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ٧ — ١٠)

٢ — والاسلام كذلك وسط فى نظرته الى حقيقة الانسان بين العقائد والمذاهب التى تقوم على اعتباره روحا علويا سجن فى جسد أرضى ، ولا يصفو هذا الروح أو يسمو الا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه .. وبين المذاهب المادية التى تعتبر الانسان جسدا محضا ، وكيانا ماديا بحتا ، لا يسكنه روح علوى ، ولا يختص بأى نغمة سماوية .. أما الانسان فى الاسلام فهو كيان روحى ومادى ، كما يشير الى ذلك خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . فقد خلقه الله من تراب أو صلصال أى أصل مادى لبدن الانسان ، ثم أودع الله فى هذه المادة شيئا آخر ، هو سر تميز الانسان ، ومنبع كرامته ، وهو الروح . وفيه يقول سبحانه للملائكة :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .
(الحجر : ٢٩)

وما دام الانسان مؤلفا من الروح والبدن ، فان لروحه عليه حقا ، كما أن لبدنه عليه حقا .

٣ — والاسلام وسط فى النظرة الى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة . واعتبروا أن الحياة الدنيا هى كل شىء :

« وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .
(الأنعام : ٢٩)

وبذلك غرقوا فى الشهوات ، وانقادوا للذاتهم وأهوائهم ، ولم يعرفوا لهم هدفا يركضون وراءه غير المنافع الدنيوية الفردية العاجلة .. وبين الذين رفضوا هـذه الحياة ، وألغوا اعتبارها من وجودهم لأنها شر يجب مقاومته والفرار منه ، فحرموا على أنفسهم طيباتها ، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها ، والانقطاع عن عمارتها والانتاج لها .

فالاسلام يعتبر الحياتين ، ويجمع بين الحسنيين ، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ويرى العمل فى عمارتها عبادة لله ، وأداء لرسالة الانسان . وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات ، كما ينكر على الآخرين انهماكهم فى الترف والشهوات . يقول الله تعالى :

● « .. **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** » . (محمد : ١٢)

● « **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** .. » . (الأعراف : ٣١ — ٣٢)

● « **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين** » . (آل عمران : ١٤٨)

٤ — ومن أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن فى رسالة الاسلام « التوازن بين الروحية والمادية » ، أى بين الدين والدنيا .. فلقد وجدت فى التاريخ جماعات وأفراد كل همهم اشباع الجانب المادى فى الانسان ، دون التفات الى الجوانب الأخرى :

« **وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** » .

(الأنعام : ٢٩)

وهذه النزعة المغالية فى المادية جديرة بأن تولد الطغيان والتكالب على متاع الحياة الدنيا ، والغرور والاستكبار — عند النعمة ، واليأس والقنوط عند الشدة . ونرى ذلك واضحا فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها ، ولم يلقوا للدين بالا ، ولا للآخرة حسابا ، ولا للروح مكانا .. فهذا قارون الذى بغى على

قومه واغتر بماله وعزا الفضل فيه الى نفسه ، فخسف الله به وبداره الأرض • وهـذا فرعون الذي بغي وطغى وافترى فأغرقه الله هو ومن تبعه من قومه • وغير هؤلاء من الأمم التى أترفت فى الحياة فقتلها الترف ، وحقت عليها كلمة العـذاب ، وحرمت نصر الله وعونه • قال تعـالى :

● « **حتي اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون • لا تجأروا اليوم ، أنكم منا لا تنصرون • قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون** » • (المؤمنون : ٦٤ — ٦٦)

● « **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين • فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون • لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون** » • (الأنبياء : ١١ — ١٣)

— وفى الطرف المقابل لهـذه النزعة المـادية وأصحابها ، وجد آخرون من الأفراد والجماعات نظروا الى الدنيا نظرة عداوة وتجاهل • فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها ، وعطلوا قواهم من عمارتها أو الاسهام فى تنميتها ورقيها والكشف عما أودع الله فيها • وعرف ذلك فى برهمية الهند ، وبدا بوضوح وجلاء فى نظام الرهبانية • وأصبح الشـائع فى مفهوم هؤلاء الناس عن التدين الحق أنه الانقطاع عن العالم ، والتفرغ للعبادة ، والتقشف دون تمتع بمباهج الحياة ، والتبطل بلا عمل ، والتبتل بلا زواج ، والتعبد ليل نهار •

— وبين هاتين النزعتين قام الاسلام يدعو الى التوازن والاعتدال ، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الانسان ، وحقيقة الحياة •• فالانسان — بعنصره المادى — قادر على أن يسعى فى الأرض ويعمرها ، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، ويسخر امكاناتها — باذن الله — لمنفعته ونفع البشرية • والانسان — بعنصره الروحى — مهيأ للتحليق فى أفق أعلى ، والتطلع الى عالم أرقى ، والى حياة هى خير وأبقى • وبهذا يسخر المـادة دون أن تسخره ، ويستخدم ما على الأرض من خيرات دون أن تستعبده • ان الأرض وما عليها خلقت له ، أما هو فقد خلق لله •• لعبادته ومعرفته وطاعته واحسان الصلة به •

والقرآن الكريم يدعو الى العمل للحياة ، والضرب فى الأرض ، والسعى فى مناكبها ، والاستمتاع بطيباتها ، الى جانب الحث على الاستعداد للآخرة ، والتزود ليوم الحساب ، وذلك بالايمان والعبادة وحسن الصلة بالله ، ودوام ذكره فى السراء والضراء ، فبذكر الله تطمئن القلوب . قال تعالى :

● **« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .**

(المائدة : ٨٧ — ٨٨)

● **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور » .** (الملك : ١٥)

● **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .** (الجمعة : ١٠)

● **« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » .** (القصص : ٧٧)

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه :

« اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

(رواه الترمذى)

فكان يعطى للدنيا حقها وللآخرة حقها ، بالقسطاس المستقيم ، وكان من دعائه :

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

(رواه مسلم)

فهذا الدعاء النبوى المأثور يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة ، انه يطلبها جميعا ، ويسأل الله أن يصلحها له جميعا ، اذ لا غنى له عن واحد منها .. فالدين عصمة أمره ، والدنيا فيها معاشه ومتاعه الى حين ، والآخرة اليها معاده ومصيره .

وكان ﷺ حريصا على توجيه أصحابه الى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم : بين حظ أنفسهم وحق ربهم ، بين متعة البدن ونعيم الروح . فاذا رأى فى بعضهم غلوا فى جانب قومه بالحكمة ورده الى سواء السبيل . ولما رأى فى بعض أصحابه افراطا فى التعبد والصيام والقيام ، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه قال له « ان لبدنك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك — يعنى زوارك وضيوفك — عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » . (رواه البخارى)

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر ، والتزم الثانى أن يقوم فلا ينام ، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدا — قال لهم : « أما انى أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر . وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (رواه البخارى)

***

رابعا — وسطية الاسلام فى التشريع :

والاسلام كذلك وسط فى تشريعه ونظامه القانونى والاجتماعى :

١ — فهو وسط فى التحريم والتحليل بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم ، وبين المسيحية التى أسرفت فى الاباحة .. فالاسلام قد أحل وحرم ، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق البشر ، بل من حق الله وحده ، ولم يحرم الا الخبيث الضار ، كما لم يحل الا الطيب النافع . ولذلك كان من أوصاف الرسول — عليه الصلاة والسلام — عند أهل الكتاب أنه :

« .. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .. »
(الأعراف : ١٥٧)

٢ — والتشريع الاسلامى وسط فى شئون الأسرة ، كما هو وسط فى شئونه كلها ، وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات دون قيد ، وبين الذين رفضوه وأنكروه ، ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة •• فقد شرع الاسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الاحصان والانفاق والثقة والعدل بين الزوجتين ، فان خاف الزوج ألا يعدل ألزمه الاقتصار على واحدة ، كما قال تعالى : « •• **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** •• » • (النساء : ٣)

٣ — وهو وسط فى الطلاق بين الذين حرموا الطلاق لأى سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية الى جحيم لا يطاق « كالكاثوليك » •• وبين الذين أرخوا العنان فى أمر الطلاق ، فلم يقيدوه بقيد أو شرط •• أما الاسلام فقد شرع الطلاق عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى ، بحيث لا يجدى تحكيم أو اصلاح • ومع هذا فهو أبغض الحلال الى الله ، ويستطيع المطلق مرة ومرة أن يراجع مطلقته ويعيدها الى حظيرة الزوجية من جديد ، كما قال تعالى :

« **الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** •• » •

(البقرة : ٢٢٩)

٤ — وفى النظام الاسلامى تلتقى الفردية والجماعية فى صورة متزنة ، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المكاسب والتبعات بالقسطاس المستقيم •• **فبالنسبة للفرد :**

(ا) لقد قرر الاسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد « حق الحياة » ، وأعلن القرآن أن :

« •• **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** •• »

(المائدة : ٣٢)

وأوجبت الشريعة فى قتل العمد القصاص ، الا أن يعفو أولياء المقتول ، أو يقبلوا بدلا ، وأوجبت فى قتل الخطأ الدية والكفارة •

(ب) وقرر الاسلام حرمة العرض ، فصان للفرد « حق الكرامة » ، فلا يجوز أن يهان فى حضرته ، أو يؤذى في غيبته ، بأية كلمة أو اشارة تسوءه . قال تعـالى :

● « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقـاب ..** » . (الحجرات : ١١)

● « **.. ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحـم أخيـه ميتا فكرهتموه ..** » . (الحجرات : ١٢)

(ج) وقرر حرمة المال ، فصان للفرد « حق التملك » ، فلا يحـل أخذ ماله الا برغبته وموافقته ، ولا يجوز للدولة أو لفرد آخر أن ينهب ماله ويأخذه بغير حق . قال النبى عليه الصلاة والسلام فى حجـة الوداع :

« ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هـذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » . (رواه مسلم)

(د) وقرر الاسلام للفرد « حرية العقيدة » ، فلا يجوز أن يكره على ترك دينه واعتناق دين آخر . قال تعالى :

● « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ..** » .

(البقرة : ٢٥٦)

● « **.. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » .

(يونس : ٩٩)

(هـ) وقرر الاسلام « حرية الرأى والفكر » .. فمن حق كل انسان ـــ بل من واجبه ـــ أن يفكر وينظر . فقد أمر الاسلام الناس أن يفكروا . وما دام التفكير واجبا وحقا لكل بشر ، فمن حق كل مفكر أن يخطىء حتى يتعلم من خطئه ، ولا لوم عليه فى ذلك ، ما دام لا يقصد الخطأ أو يتعمده . ان الاسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر وان أخطأ اصابة الحقيقة . قال تعـالى :

● « **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..** » .

(العنكبوت : ٢٠)

● **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »** • (الحج : ٤٦)

● **« ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »** •
(الأنفال : ٢٢)

وفى الحديث النبوى الشريف :

« المجتهد اذا أخطأ فله أجر ، وان أصاب فله أجران » • (متفق عليه)

وفى ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس الفكرية المختلفـة فى الفقه والتفسير والكلام وغيرها •

(و) وقرر الاسلام « المسئولية الفردية » ، وأكدها تأكيدا بليغا فى كتابه الكريم :

● **« كل نفس بما كسبت رهينة »** • (المدثر : ٣٨)

● **« لا يكلف الله نفسـا الا وسـعها ، لها ما كسـبت وعليهـا ما اكتسبت •• »** • (البقرة : ٢٨٦)

● **« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضـل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى •• »** • (الاسراء : ١٥)

ومع هذه الحقوق والحريات التى منحها الاسلام للفرد ، فقـد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد الحقوق والحريات الفردية بأن تكون فى أطار مصلحة الجماعة ، وألا يكون فيها ضرر للغير ، فـلا ضرر ولا ضرار فى الاسلام ، كما أن حق الفرد اذا تعارض مع حقوق الجماعة فان حق الجماعة أولى بالتقديم • **فبالنسبة للجماعة :**

(أ) « فالحياة » التى صانها الاسلام للفرد ، اذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب على المسـلم أن يقدمها راضى النفس ، قرير العين ، معتقدا أن الموت هنا هو عين الحياة • وكذلك اذا اعتدى على حق نفس أخرى ــ كقاتل العمد ، أو على حق المجتمع فى الأمن والاستقرار ــ كقاطع الطريق ــ أو خرج على دينه وفارق الجماعة ــ كالمرتد ــ فقدت حياته مالها من عصمة •

(ب) وملكيـــة الفرد للمال ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع ، حتى أن انتزاع هــذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة ، على أن يعوض عنه ثمن المثل ، فالمـــال مال الله ، وهو مستخلف فيه . فالفرد وكيل الجماعة فى رعاية المـــال وتنميته وانفاقه . فاذا أساء التصرف فى المـــال ، كان من حق الجماعة أن تغل يده وتحجر عليه . كما أن للجماعة على الفرد حقوقا فى المـــال ، بعضها دورى ثابت كالزكاة بأنواعها ، وبعضها غير دورى كما فى الحديث : « ان فى المـــال حقا سوى الزكاة » . (رواه الترمذى)

(ج) والحريات والحقوق كلهـــا مقيدة برعاية أخلاقيات المجتمع ومثله وعقائده . فليس معنى حرية العقيـــدة أو الرأى اباحة الطعن والهجوم على الاسلام وأهله ، واشاعة الكفر بالله وكتابه ورسوله ، والتشكيك فى القيم العليا ، ونشر الفجور ، فان حرية الافساد لا يقرها عقل ولا شرع .

(د) ومع المسئولية الفردية التى أكدها الاسلام ، نراه قد أكد كذلك مسئولية الفرد عن الجماعة ، فكل فرد فى المجتمع المسلم راع فى مجال من المجالات ، كما فى الحديث الصحيح : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. » (رواه الترمذى) وفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضى مسئولية المسلم عن المجتمع ، وتوجب عليه مراقبة أحواله ، وتقويم عوجه بقدر استطاعته .

(هـ) والمسلمون مسئولون بالتضامن عن تنفيذ شريعة الاسلام واقامة حدوده ، ومن هنا كان خطاب التكليف فى القرآن الى الجماعة ، وتكرر قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا »** بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة فى تنفيذ ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه . لقد خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى :

- **« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما .. »** .

(المـــائدة : ٣٨)

- **« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة .. »** .

(النور : ٢)

وان كان الذى يقوم على هـذه الحدود هو الدولة والحكام ، لأن الجماعة كلها مسئولة عن اقامتها •

(و) والعبادة التى هى صلة بين العبد وربه ، أبى الاسلام الا أن يضفى عليها روحا جماعية وصبغة جماعية ، فدعا الى صلاة الجماعة ورغب فيها ، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده بسبع وعشرين درجة • واذا صلى المسلم منفردا فى خلوة لم تزل الجماعة فى وجدانه وضميره ، فهو اذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع ، واذا دعاه دعاه باســم الجميع :

« **اياك نعبد واياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم** » •

(الفاتحة : ٥ ــ ٦)

كما شرع الاسلام صلاة الجمعة مرة كل أسبوع ، وصلاة العيد فى كل عام مرتين ، وفرض الحج فى العمر مرة على كل مسلم قادر ، وكلها شعائر لابد أن تؤدى فى صورة جماعية •

(ز) وفى مجال الآداب والتقاليد ، حث الاسلام على العديد من الآداب الاجتماعية ، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية •• فتحية الاسلام ، والمصافحة عند اللقاء ، والتزاور والتهادى ، وعيادة المريض ، ومواساة المصاب ، وصلة الأرحام ، واحسان الجوار ، واكرام الضيف ، والبر باليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وغيرها ، هى التى جعلت الشـــعور الجماعى ، والتفكير الجماعى ، والسلوك الجماعى ، جزءاً لا يتجزأ من حياة المســلم •

(ح) وفى مجال الأخلاق ، حث الاســلام على المحبة والاخاء والايثار ، وأمر بالتعاون على البر والتقوى ، ودعا الى توحيد الكلمة وجمع الصفوف ، كما دعا الى التراحم والتسامح ، والى البذل والتضحية ، واحترام النظام ، والطاعة لأولى الأمر فى المعروف •

هــذا الى جانب التحذير من البغضاء والحسد والحقد ، والفرقة والتنازع ، وسائر الرذائل التى تنشأ عن الأنانية والمغالاة فى حب الذات وحب الشهوات •

* * *

ديـن العـدل

من أهم دعائم السعادة التى يسعى اليها البشر أن يطمئن الناس على حقوقهم ، وأن يستقر العدل فيما بينهم . وليس هناك شىء أبعث للشقاء والفتن واثارة للقلق وعدم الاطمئنان بين الأفراد والجماعات ، من سلب الحقوق ، واغتيال الأقوياء حقوق الضعفاء ، وتسلط الطغاة على الآمنين المسالمين . وما من شك فى أن هذه الظواهر — التى ينحرف بها أهلهـا من سنن الله ونظامه فى كونه — أشد ما يقطع الصلات ، ويغرس الأحقاد ، ويثير أعاصير الكيد والانتقام ، ويهـدد المجتمع بالأخطار التى تحمـل الناس ما لا طاقة لهم ، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد (٣) .

● مكانة العدل فى القرآن والسنة :

ولقد كان أول ما قرره الاسلام حفظا لكيان المجتمع البشرى ، مبدأ العدل بين الناس .. عنى به القرآن الكريم ، وأمر به عاما وخاصا ، حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا ونحمل لهم من البغضاء ما تنوء بحمله القلوب . قال تعـالى :

● « .. **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** .. » . (المـائدة : ٨)

● « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** .. » . (النحل : ٩٠)

● « .. **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** .. » . (الأنعام : ١٥٢)

لقد أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرا عاما ، دون تخصيص بنوع دون نوع ، ولا بطائفة دون طائفة ، لأن العدل نظام الله وشرعه ، والناس عباده وخلقه ، يستوون — دون تفرقة بين أبيض وأسـود ، أو عربى وأعجمى ، أو ذكر وأنثى — أمام عدله وحكمه ، قال تعالى :

---

(٣) محمود شلتوت . **الاسلام عقيدة وشريعة** « ط ٨ » . (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥) ، ص ٤٤٤ — ٤٤٥ .

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .
(النساء : ١٢٣ — ١٢٤)

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع . ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، قال تعالى :

« .. ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. » . (الحجرات : ١٣)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » . (الكهف : ٤٦)

ان العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى .. العدالة فى كل شىء ، أى العدالة فى الأقوال والأفعال والسلوك عامة .. وليس فى الاسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، كما لا يعرف التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى . يقول تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .
(الحجرات : ١٣)

« .. ألا لعنة الله على الظالمين » . (هود : ١٨)

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .
(الكهف : ٥٩)

ومن العدالة المعاملة بالمثل ، فمن اعتدى علينا قاومناه بكل ما لدينا من قوة . قال تعالى :

« .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. » .
(البقرة : ١٩٤)

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . (النحل : ١٢٦)

وأمرنا الاسلام عند المعاملة بالمثل أن نتمسك بالأخلاق الحميدة ، فاذا كان العـدو يقتل الذرية لا نقتلها ، وان كان يدمر ديار الآمنين لا ندمرها ما أمكن ، واذا كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها نحن ، وهكذا • والوفاء بالعهد عدالة لأنه فى ذاته قوة • قال تعالى :

« •• وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » •
(الأنعام : ١٥٢)

« •• وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسـئولا » •
(الاسراء : ٣٤)

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا •• » • (النحل : ٩١)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

ــ « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام » • (رواه الطبرانى وأحمد)

ــ « لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره » • (رواه الديلمى)

ــ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » •
(رواه أحمد)

ــ « دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجرا ، ففجوره على نفسـه » • (رواه أحمد)

* * *

العـدالة الاجتماعية فى الاسـلام

الاسلام دين الوحدة بين القوى الكونية جميعا ، فلا جرم هو دين التوحيد •• توحيد الاله ، وتوحيد الأديان جميعا فى دين الله ، وتوحيد الرسل فى التبشير لهذا الدين الواحد منذ فجر الحياة • قال تعالى :

« ان هـذه أمتكم أمة واحـدة وأنا ربكم فاعبدون » •
(الأنبياء : ٩٢)

والاسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والشريعة ، والماديات والروحانيات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية ، والدنيا والآخرة .. وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه ، وتوجيهاته وحدوده ، وقواعده فى سياسة الحكم وسياسة المال ، وفى الحقوق والواجبات . وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات .

وحين ندرك هذا الشمول فى طبيعة النظرة الاسلامية للألوهية والكون والحياة والانسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الإسلام .. فهى قبل كل شىء عدالة اجتماعية شاملة لكل جوانب الحياة الانسانية ومقوماتها ، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة . فهى تتناول جميع مظاهر الحياة ومناشطها ، كما تتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانات . والقيم التى تتناولها هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية فحسب ، انما هى القيم المادية ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية .

ثم ان الحياة فى نظر الاسلام تراحم وتواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم ، بين المسلمين على وجه خاص ، وبين جميع أفراد الانسانية على وجه عام . ان الاسلام هو حلم الانسانية الخالد ، مجسما فى حقيقة تعيش على الأرض .

على هذين الخطين الكبيرين : الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة ، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، يسير الاسلام فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، مراعيا العناصر الأساسية فى فطرة الانسانية ، غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية .

يقول القرآن الكريم عن الانسان : « **وانه لحب الخير لشديد** » .
(العاديات : ٨)

حب الخير لذاته ولما يتصل بذاته . ويقول فى وصف الانسان بالبخل فطرة وطبعا : « .. **وأحضرت الأنفس الشح** .. » .
(النساء : ١٢٨)

ووردت فيه صورة فنية معجبة لهذه الفطرة البشرية العجيبة :

« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا » . (الاسراء : ١٠٠)

على حين يقرر أن رحمة الله وسعت كل شيء . فيبرز بهذه السعة وبذلك الامساك مدى الشح فى فطرة الإنسان لو ترك بلا توجيه أو تهذيب .

وعندما يضع الاسلام نظمه وتشريعاته وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ، ولكنه يعالج الأثرة ، ويعالج الشح ، بالتوجيه وبالتشريع .. فلا يكلف الانسان الا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال [٤] .

واذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطغى مطامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فانه من الظلم كذلك أن تطغى الجماعة على فطرة الفرد وطاقته .. انه من الظلم لا لهذا الفرد وحده ، بل للجماعة ذاتها . فتحطيم نشاط الفرد لا يقف أثره السيء عند حرمان هذا الفرد ما هو حق له ، بل يتجاوزه الى حرمان الجماعة أن تنتفع بكامل طاقته . ومتى كفل النظام للجماعة حقها فى جهد الفرد وطاقته ، ووضع لحرية الفرد وأطماعه الحدود الكابحة ، فلا ينبغى أن يغفل حق الفرد فى انطلاق نشاطه ، فى الحدود التى لا تضار بها الجماعة ، ولا يضار بها الفرد ذاته ، ولا تصطدم بأهداف الحياة العليا .. فالحياة تعاون وتكافل فى نظر الاسلام ، كما أنها اطلاق للطاقات الفردية والعامة . وكل ما ليس حراما فهو مباح ، والمرء يثاب على كل نشاط حيوى فى حدود منهج الله وشرعه يراعى فيه وجه الله وحده ، ويحقق به الغايات العليا للحياة كما ارتضاها الله .

---

(٤) سيد قطب ، **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** (ط ٩) . (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣) ، ص ٢٦ — ٢٧ .

واقد قرر الاسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، ثم جعل القيم الأصيلة فى المجتمع المسلم قيما أخرى غير القيم الاقتصادية • قال تعالى :

● « •• **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** •• » • (الحجرات : ١٣)

● « •• **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** •• » • (المجادلة : ١١)

● « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » • (الكهف : ٤٦)

وهكذا يبدو أن هناك قيما أخرى ، غير القيم الاقتصادية البحتة ، يحسب الاسلام حسابها ، ويجعلها هى القيم الحقيقية ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس ، بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة ، وليس على الوسائل المنكرة التى يحرمها الاسلام تحريما •

ان العدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضا فيها ، مع تحقق العدالة الانسانية ، باتاحة الفرص المتساوية للجميع •• فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ، ولا أصل أو جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود ، وبتحرير الوجدان البشرى تحريرا كاملا من ضغط القيم الاقتصادية البحتة ، ووضع هذه القيم فى مكانها الحقيقى المعقول •

ان الاسلام يحتم الكفاية لكل فرد ، ويفضل أن تكون هذه الكفاية عن طريق الملكية الفردية أو العمل المنتج بأنواعه ، ويحرم الترف الذى يطلق العنان للمتاع والشهوات ويقيم الفوارق الشاسعة فى مستويات الحياة • كما أنه يرتب فى الأموال حقوقا للفقراء بقدر حاجتهم ، ويقدر ما يصلح للمجتمع ويضمن له التكافؤ والتعادل والنمو •• وبذلك لا يغفل الاسلام جانبا واحدا من جوانب الحياة المادية والشعورية ، الدينية والدنيوية ، حتى تنصهر هذه الجوانب كلها وتصبح وحدة متماسكة ،

يصعب اهمال عنصر من عناصرها الممتزجة المتناسقة ، ولتنسق وحدتها مع وحدة الكون الكبير ، ووحدة الحياة والانسان •

❋ ❋ ❋

● أسس العدالة الاجتماعية فى الاسلام :

يقيم الاسلام هــذه العدالة الاجتماعية على أسس ثابتة ، ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة •• فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجملة ، حيث ان الاسلام بطبيعته دين تنفيذ وعمل فى واقع الحياة ، لا دين دعوة وارشاد مجردين فى عالم المثاليات •• ان الواقع الذى يعده الاسلام حقيقة ليس واقع فرد ، ولا واقع أمة ، ولا واقع جيل •• انما يمد ببصره الى جميع الآفاق ، ويحسب حسابا لجميع المصالح ، ويستهدف تحقيق غاية تشمل الانسانية كلها •• وهذه النظرة الكلية بعيدة الأهداف الى العدالة الاجتماعية ، هى التى تفسر لنا نظما عــدة فى الاسلام ، فهى التى تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الارث ، ونظام الزكاة ، ونظام المعاملات ، ونظام الحكم •• الى آخر ما يتضمنه الاسلام من نظم تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال •

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك كله ، فسنقتصر على تناول الأسس العامة التى أقام عليها الاسلام بناء العدالة الاجتماعية فى حدود فكرته الكلية • وسنرى من طبيعتها أن الاسلام قد نظر الى وحدة الروح والجسد فى الفرد ، والى وحدة المعنويات والمــاديات فى الحياة • كما نظر الى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة فى الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الأمم الانسانية ، ووحــدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصــالح القريبة المحــدودة •

وهذه الأسس التى أقام عليها الاســلام العدالة الاجتماعية هى :

— التحرر الوجدانى المطلق •

— المساواة الانسانية الكاملة •

— التكافل الاجتماعى الوثيق •

وسنناقش هــذه الأسس فيما يأتى [٥] :

أولا — التحـــرر الوجــدانى :

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والاستمرار والبقاء ، ما لم تستند الى شعور نفسى باطنى باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة اليها ، وبعقيدة فى أنها تؤدى الى طاعة الله والى واقع انسانى أسمى • وما لم تستند كذلك الى واقع مادى يهيىء للفرد أن يتمسك بها ويدافع عنها ويحتمل تكاليفها • ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور • ولن تحافظ الجماعة على التشريع ان وجد ، الا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وامكانات عملية تؤيده من الخارج •• وهــذا ما نظر اليه الاسلام فى توجيهاته وتشريعاته جميعا •

لقد بدأ الاسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لأحد غير الله • فما لأحد عليه غير الله من سلطان ، وما من أحد يميته أو يحييه الا الله ، وما من أحد يملك له ضرا ولا نفعا ، وما من أحد يرزقه من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ، والله وحده القادر الذى يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا • قال تعالى :

« قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفواً أحد » • (سورة الاخلاص)

واذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه اليه الجميع فلا عبادة لسواه ، كى لا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على أحد الا بعمله وتقواه :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله •• » •

(آل عمران : ٦٤)

---

(٥) سيد قطب ، **المرجع السـابق** ، ص ٣٢ — ٦٢

ويحرص الاسلام على هذا المعنى حرصا شديدا ، فيركز عليه القرآن الكريم فى مناسبات شتى • ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه اليهم الناس بشيء من العبادة ، أو ما فى معناها على وجه من الوجوه ، فقد عنى الاسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريرا كاملا • فيقول عن نبيه محمد ﷺ :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم •• » • (آل عمران : ١٤٤)

ويخاطب النبى محمد فى صراحة قوية :

« ليس لك من الأمر شيء •• » • (آل عمران : ١٢٨)

كما يخاطبه فى موضع آخر بما يشبه التهديد :

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » •

(الاسراء : ٧٤ — ٧٥)

وكان ذلك بشأن محاولات المشركين مع الرسول الكريم لفتنته عما أوحى الله اليه • ولقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى •• منها مساومتهم له أن يعبدوا الهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم •• ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله • ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء •• والنص القرآنى يشير الى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على رسوله فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة • ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن اليهم فاتخذوه خليلا ، وللقى عاقبة الى فتنة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة وبعد الممات ، دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله (٦) •

---

(٦) سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** • « جـ ٤ » • (القاهرة ، دار الشروق ، « ط ٨ » ، ١٩٧٩) ، ص ٢٢٤٥ •

كما يدعوه القرآن الكريم الى أن يجهر بحقيقة موقفه :

« قل انما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً • قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشداً • قل انى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحـــدا » • (الجن : ٢٠ — ٢٢)

ويتحدث القرآن الكريم عمن ألهوا عيسى ابن مريـــم ، فيصمهم بالكفر :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المســيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شــيئا ان أراد أن يهلك المســيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا •• » • (المــائدة : ١٧)

ويقول عن المسيح فى موضع آخر :

« ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل » • (الزخرف : ٥٩)

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد ، تتمثل فى تلقى الشرائع منهم ، وجعلهم بذلك أربابا ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهـــم شعائر العبادة :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون »• (التوبة : ٣١)

وهكذا يستمر القرآن الكريم فى توكيد هذه العقيـــدة وتثبيتهـــا وتوضيحها ، ليصـــل الى تحرير الوجدان البشرى من كل شبهة شرك قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، ان يكن نبيا أو رسولا ، فانه عبد من عباده • واذا انتفى أن يكون عبد بذاته مميز عند الله من عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ، فلا كهانـــة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ، يستمد منه القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه ، فيشتد ايمانـــه وتقوى معنوياته •

والاسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة ، واشـــعار

الفرد أنه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار • يقـول تعـالى :

● **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » •**

(البقرة : ١٨٦)

● **« ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » •** (يوسف : ٨٧)

● **« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعاً » •** (الزمر : ٥٣)

فاذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والخضوع لعبد من عباد الله ، وامتلأ الشعور بأنه على اتصال كامل بالله ، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة •• وهو شعور خبيث يغض من احساس الفرد بنفسه ، وقد يدعوه الى قبول الذل والتنازل عن كثير من حقوقه وكرامته •• ولكن الاسلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة . وأن يبث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق والمحافظة على العدل ، وأن يضمن بذلك كله — علاوة على التشريع — عدالة اجتماعية مطلقة . لا يفرط فيها انسان •• لهذا كله يعنى الاسلام عناية خاصة بأن يقاوم الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق وعلى المكانة ، فالحياة بيد الله ، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة ، كما أن النفع والضر بيد الخالق — سبحانه — دون سواه ، قال تعالى :

● **« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ، كتابا مؤجلا •• » •**

(آل عمران : ١٤٥)

● **« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » •** (التوبة : ٥١)

● **« قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله » لكل أمة أجل ، اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » •**

(يونس : ٤٩)

● « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم .. » . (الأنعام : ١٤)

● « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. » . (الرعد : ٢٦)

● « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم .. » (العنكبوت : ٦٠)

● « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله .. » . (يونس : ٣١)

● « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا اله الا هـو ، فأنى تؤفكون » . (فاطر : ٣)

● « ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم .. » . (الأنعـام : ١٥١)

● « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » . (آل عمران : ٢٦)

وأخيرا فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ، ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ، ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ، ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة لشهواتها ومطامعها وأهوائها ، فيأتى لها القيـد من داخل حين تنفلت منه من خارج ، فلا تبلغ التحرر الوجدانى الكامل الذى يريده الاسلام لها ، ليحقق لهـا العدالة الاجتماعية الانسانية الكبرى .. والاسلام لا يغفل عن هذا الخطر الكامن على التحرر الوجدانى ، فيلقى اليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارهـا ، وتـدل على رعايتـه لكل اسـتعداداتها وملابساتها . قال تعـالى :

● « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأمـوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب

اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسـقين » • (التوبة : ٢٤)

وهكذا يجمع القرآن الكريم فى آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والرغبات ونقط الضعف فى نفس الانسان ، ليضعها فى كفة ، ويضـع فى الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيل الله والتخلص من سيطرة الشهوات • فالنفس التى تتحرر من هذا كله هى النفس التى يتطلبها الاسلام ، ويدعو الى تكوينها لتستعلى على الضراوة المذلة ، وتملك قياد أمرها ، وتنزع الى ما هو أكبر وأبعـد مدى من الرغبـات الوقتية العابرة •

وفى آية أخرى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيـا ، والله عنده حسن المآب • قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » •

(آل عمران : ١٤ — ١٥)

وما كان هذا تحذيرا ولا دعوة الى الزهد وترك طيبـات الحياة ، انما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات ، ثم لا ضرر بعـد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الانسان ولا تملكه • قال تعالى :

● **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبـات من الرزق •• »** • (الأعراف : ٣٢)

● **« •• ولا تنس نصيبك من الدنيـا •• »** • (القصص : ٧٧)

وقد يتحرر المرء من كل ما يقلل شعوريا من كرامته ، ولكنـه يحتاج الى لقمة العيش فيذل ، ولقد يضطر للاستجداء ، فتذهب كرامتـه كلهـا ضياعا • هنا يتولى الاسلام الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة ولازالتها حين توجد •• فيجعل للفرد حقه فى الكفاية مفروضا على الدولة وعلى القادرين فى الأمة ، فرضا يعاقب عليه فى الآخرة ويقاتل عليه فى الدنيا •

ثم ينهى عن الاستجداء ، فيصف جماعة من المسلمين ، الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، وصف استحسان بأنهم :
« لا يسألون الناس الحافا » (البقرة : ٢٧٣) • والنبى ﷺ يعطى سائلا درهما ثم يقول :

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » •
(رواه الشيخان)

ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » • (رواه الشيخان) •

أما أموال الزكاة فهى حق يؤخذ ، لا فضل يعطى :
« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » • (الذاريات : ١٩)

فهى حق تأخذه الدولة لتملكه لأصحابه ، وتنفق منه فى مصالح المسلمين بما يشبع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصون عزة الوجدان •

وهكذا يأخذ الاسلام الأمر من وجوهه كلها •• فيكفل التحرر الوجدانى تحررا مطلقا يقوم على الاقتصاديات والمعنويات •• فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقتها ، ويدفع الطبيعة البشرية الى التحرر الوجدانى كاملا صريحا • وهذا التحرر هو أحد الأسس الركينة لبناء العدالة الاجتماعية فى الاسلام ••

* * *

ثانيا — المساواة الانسانية :

عندما يستشعر الضمير البشرى كل هذا التحرر الوجدانى ، ويجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد فى نفسه هذا الشعور ، فلن يكون فى حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا ، وقد استشعرها فى أعماقه معنى ؛ ووجدها فى حياته واقعا • انه لن يصبر على التفاوت القائم فى المجتمع ؛ بل سيطلب حقه فى المساواة ، وسيجاهد لتقرير هذا الحق ، وسيعمل على الاحتفاظ به حين يناله ، ولن يقبل عنه بديلا ،

وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به والذود عنه ، مهما بذل فى ذلك من جهد وتضحية •

ولكن الاسلام مع ذلك لم يكتف بالمفاهيم الضمنية المستفادة من التحرر الوجدانى • فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليكون كل شىء واضحا مقررا •• ففى الوقت الذى كان البعض يدعى ويصدق أنه من نسل الآلهة ، والبعض يدعى ويصدق أن الدماء التى تجرى فى عروقه هى من الدم الأزرق النبيل ، وفى الوقت الذى كانت بعض الملل تفرق الشعوب الى طبقات ، وفى الوقت الذى كان يدور فيه الجدل حول المرأة ، وفى الوقت الذى يباح فيه للسيد أن يعذب عبيده ويقتلهم لأنهم من طينة أخرى غير طينة السادة •• فى هذا الوقت جاء الاسلام ليقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا وفى الآخرة ، لا فضل الا للعمل الصالح •• •• فالاله لم ينسل أحدا :

« قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد » • (سورة الاخلاص)

● **« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا • لقد جئتم شيئاً أداً • تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا • أن دعوا للرحمن ولدا • وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا • ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا • لقد أحصاهم وعدهم عداً • وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »** • (مريم : ٨٨ — ٩٥)

● **« ألم نخلقكم من ماء مهين • فجعلناه فى قرار مكين • الى قدر معلوم • فقدرنا فنعم القادرون »** • (المرسلات : ٢٠ — ٢٣)

● **« فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب »** • (الطارق : ٥ — ٧)

● **« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير »** • (فاطر : ١١)

● **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »** • (المؤمنون : ١٢ — ١٤)

وفى هذا المعنى يقول النبى محمد ﷺ :

« أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » • (رواه مسلم وأبو داوود)

ويتعقب السلام مظان التفاوت والتفاضل — الا بالتقوى والعمل الصالح — فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعا •• فهذا النبى محمد ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ذاته يكرر هذا المعنى ، خشية أن ينقلب حب قومه له وتبجيلهم اياه الى تألية أو قدسية لا تكون الا لله سبحانه ، فيقول ﷺ لقومه : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » • (رواه البخارى)

وأما بين الجنسين ، فقد كفل الاسلام للمرأة مساواة تامة مع الرجل من حيث الحقوق الانسانية ، ولم يقرر التفاضل الا فى بعض الملابسات المتعلقة بالاستعداد أو التبعة ، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الانسانى للجنسين ••

ففى الناحية الدينية والروحية يتساويان ، قال تعالى :

● **« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »** • (النساء : ١٢٤)

● **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** • (النحل : ٩٧)

● **« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض •• »** • (آل عمران : ١٩٥)

وفى ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادى يتساويان ، قال تعالى :

● « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ..** » . (النساء : ٧)

● « **.. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ..** » (النساء : ٣٢)

وحسب الاسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب ، وما حقق لها من ضمانات فى الزواج باذنها ورضاها ، دون اكراه أو اهمال ، قال تعالى :

● « **.. فآتوهن أجورهن فريضة ..** » . (النساء : ٢٤)

● « **فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ..** » . (البقرة : ٢٣١)

وأخيرا فان للجنس البشرى كله كرامته التى لا يجوز أن تستذل . وللناس جميعا — فى المجتمع المسلم — كراماتهم التى لا يجوز أن يسخر منها أحد أو يحط من قدرها . قال تعالى :

● « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » . (الاسراء : ٧٠)

● « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الأيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** » . (الحجرات : ١١)

وللناس جميعا فى المجتمع المسلم حرماتهم ، قال تعالى :

● « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم** » . (النور : ٢٧ — ٢٨)

● « **.. ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ..** » . (الحجرات : ١٢)

وهكـــذا يتتبع الاســـلام كل ناحية من حياة النـــاس الوجدانية والاجتماعية ، ليؤكد فيها معنـــى المســـاواة • ولم يكن فى حاجة لأن يتحدث عن المســـاواة لفظا وصورة كما أسلفنا ، بعد ماحققها معنى وروحا ، بالتحرر الوجدانى الكامل من جميع القيم وجميع الملابســـات وجميع الضرورات ، وكفل لها فى عالم الواقع كل الضمانات • ولكنه يحرص على المســـاواة حرصا شديدا ، ويريدها انسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا مركز ، كما يريدها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها ، مما وقفت عنده المذاهب المادية •

* * *

ثالثا ــ التكافل الاجتماعى :

الاسلام يمنح الحرية الفردية فى أجمل صورها ، والمســـاواة الانسانية فى أدق معانيها • ولكنه لا يتركهما فوضى ، فللمجتمع حسابه ، وللانسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها • لذلك يقرر مبدأ التبعة الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر الى جانبها التبعـــة الجماعية التى تشـــمل الفرد والجماعة بتكاليفها • وهـــذا ما نسميه « بالتكافل الاجتماعى » • فالاسلام يقرر مبدأ التكافل فى كل صوره وأشكاله •• فهناك تكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة •

١ ــ **هناك تكافل بين الفرد وذاته** •• فهو مكلف بأن ينهى نفسه عن شهواتها ، وأن يزكيها ويطهرها ، وأن يسلك بها طريق الصلاح وألا يلقى بها الى التهلكة • قال تعالى :

● **« فأما من طغى • وآثر الحيـــاة الدنيا • فان الجحيم هى المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المـــأوى »** • (النازعات : ٣٧ ــ ٤١)

● **« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قـــد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها »** • (الشمس : ٧ ــ ١٠)

● « .. ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . (البقرة : ١٩٥)

وهو مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلا ينهكها ويضعفها . قال تعـالى :

● « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيـا » . (القصص : ٧٧)

● « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » . (الأعراف : ٣١)

والتبعة الفردية كاملة .. فكل انسان وعمله ، وكل انسان ومايكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سـيئة ، ولن يجزى عنه أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ، قال تعالى :

● « كل نفس بما كسبت رهينة » . (المدثر : ٣٨)

● « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وابراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . (النجم : ٣٦ — ٤١)

● « لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليهـا ما اكتسبت .. » . (البقرة : ٢٨٦)

● « .. فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » . (الزمر : ٤١)

● « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه .. » .

(النساء : ١١١)

وبذلك كله يقف الانسان من نفسه موقف الرقيب ، يهديها ان ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة ، ويحسابها ان أخطأت ، ويحتمل تبعة اهماله لها . وبذلك يقيم الاسلام من كل فرد رقيبا على نفسه ، يلاحظ ويحاسب ويعمل على التكافل فى الخير والشر ، فى مقابل منح الفرد التحرر الوجدانى الكامل ، والمساواة الانسانية التامة ، فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان .

٢ — **وهناك تكافل بين الفرد وأسرته** ، وقيمة هذا التكافل فى محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها • فالأسرة هى اللبنة الأولى فى المجتمع ، ولا مفر من الاعتراف بقيمتها •• فهى تقوم على الميول الثابتة فى الفطرة الانسانية ، وعلى عواطف المودة والرحمة، ومقتضيات الضرورة والمصلحة• قال تعـالى :

● **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صـغيرا »** • (الاسراء : ٢٣ — ٢٤)

● **« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك •• »** • (لقمان : ١٤)

● **« •• وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله •• »** • (الأحزاب : ٦)

● **« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده »** • (البقرة : ٢٣٣)

٣ — **وهناك تكافل بين الفرد والجماعة** ، يوجب على كل منهما تبعات ، ويرتب لكل منهما حقوقا • والاسلام يبلغ فى هـذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما فى النهوض بتبعاته فى شتى مناحى الحياة المعنوية والمـادية على السواء • فكل فرد مكلف أولا أن يحسن أداء عمله ، فاحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الذى يقوم به الفرد ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية • قال تعـالى :

● **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون •• »** • (التوبة : ١٠٥)

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها وموكل بها • والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعا مسئولون عن سلامتها . وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منهـا باسم الحـرية الفردية • وفى الحديث النبوى الشريف :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا جميعا » • (رواه البخارى والترمذى)

وهذا تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحدها ، بازاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية ، ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل هـذه الأحوال •• وليس هناك فرد معفى من رعاية المصالح العامة ، فكل فرد راع ورعية فى المجتمع :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » • (رواه الشيخان)

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حـدود البر والمعروف :

● **« •• وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان •• »** • (المـائدة : ٢)

● **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر •• »** • (آل عمران : ١٠٤)

وكل فرد مسئول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فان لم يفعل فهو آثم وهو يعاقب باثمه ، قال تعالى :

« خذوه فغلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه • انه كان لا يؤمن بالله العظيم • ولا يحض على طعام المسكين • فليس له اليوم ها هنا حميم • ولا طعام الا من غسلين • لا يأكله الا الخاطئون » • (الحاقة : ٣٠ ــ ٣٧)

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذى يراه .. فكل فرد مسئول عن كل منكر يقع فى الأمة ولو لم يكن شريكا فيه ، فالأمة واحدة ، وعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها . وفى الحديث الشريف :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان » .

(رواه مسلم وأبو داوود والترمذى)

والأمة كلها تؤاخذ وينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة اذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها ، فهى مكلفة أن تقوم كل فرد فيها . قال تعالى :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . (الاسراء : ١٦)

ولقد استحق بنو اسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ، وذهبت ريحهم ، لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه . قال تعالى :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . (المائدة : ٧٨ — ٧٩)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » .

(رواه أحمد)

— « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

— « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

(رواه أبو داوود والترمذى)

والأمة مسئولة عن حماية الضعفاء فيها ورعاية مصالحهم وصيانتها ، وعليها أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم ، قال تعالى :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... » • (النساء : ٧٥)

وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » • (النساء : ٦)

وفى الحديث :

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو القائم الليل ، الصائم النهار » • (رواه الشيخان والترمذى والنسائى)

والأمة المسلمة كلها جسد واحد ، يحس احساسا واحدا ، وما يصيب عضوا منه يشتكى له سائر الأعضاء • وهذه صورة جميلة يرسمها الرسول الكريم فيقول :

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » •

(متفق عليه)

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود في الجرائم الاجتماعية وشددت ، لأن التعاون لا يقوم الا على أساس صيانة حياة كل فرد فى دار الاسلام وماله وحرماته • وفى الحديث :

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » •

(رواه الشيخان)

لذلك شرع القصاص فى القتل والجروح جزاء وفاقا • قال تعالى :

● **« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ... »** •

(النساء : ٩٣)

● « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ..** » .

(المـائدة : ٤٥)

● « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » .

(البقرة : ١٧٩)

وشدد عقوبة الزنا لما فيها من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة فى الجماعة . قال تعالى :

« **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ..** » .

(النور : ٢)

وجعـل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصـنات المؤمنات ويفترون عليهن ، ويلوثون أعراضهن كذبا . قال تعالى :

« **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ..** » . (النور : ٤)

وشدد العقوبة على السرقة لـما فيها من اعتداء على أمن الناس وطمأنينتهم والثقة المتبادلة بينهم ، فجعلها قطع اليد :

« **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من اللـه ..** » . (المـائدة : ٣٨)

والذين يهددون أمن الجماعة العام — فى دار الاسلام المحكومة بشريعة الله — جزاؤهم القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل أو النفى من الأرض :

« **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ..** » . (المـائدة : ٣٣)

لأن الائتمار والاجتماع على الافسـاد والفتنة جريمة أكبر من الجرائم الفردية ، وأحق بالحسم وشدة العقوبة .

وهكذا يفرض الاسلام التكافل الاجتماعى فى كل صوره وأشكاله ، تمشيا مع نظرته الأساسية الى وحدة الأهداف الكلية للفرد والجماعة ، وفى تناسق الحياة وتكاملها .. فيدع للفرد حريته كاملة فى الحدود التى لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ، ويجعل للجماعة حقوقها ، ويكفلها من التبعات فى الوقت ذاته كفاء هـذه الحقوق ، لتسير الحياة فى طريقها السوى القويم ، وتصل الى أهدافها العليا التى يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء .

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجدانى المطلق ، والمساواة الانسـانية الكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق .. تقوم العـدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الانسانية .

* * *

الفصل السادس

دين التشريع للفرد والأسرة والمجتمع

القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله على رسوله الأمين بالهدى والحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور عن طريق الوحى • وقد امتد الوحى ثلاثا وعشرين سنة ضمت ١١٤ سورة منها ٨٧ سورة مكية تتميز بترسيخ العقيدة واثبات وحدانية الله • بمخاطبة العقل والوجدان • أما بقية السور وعددها ٢٧ سورة فهى تمثل السور المدنية التى نزلت على الرسول ﷺ فى المدينة المنورة ، وتضم تشريعات لأسس الدولة الاسلامية ، بمقررات ربانية عامة وقواعد كلية تقوم عليها جميع التنظيمات الحيوية ، ومجموعة مبادىء لتنظيم السلوك الانسانى العام •

ويشكل القرآن — بسوره المكية والمدنية — كلا متكاملا يتناول فى بدايته ارساء قواعد العقيدة ، ويتدرج منها — وعلى أساسها — الى تحديد الاطار — الذى يلتزم به الانسان فى علاقته بنفسه وبالآخرين ، من خلال تنظيم دقيق محكم لحياة الانسان فى جماعته (١) •

---

(١) عبد الله الخريجى ، **نظم المجتمع الاسلامى ، مع التطبيق على المجتمع العربى السعودى** • (جدة : رامتان ، ١٩٨٣) ، ص ٢٩ — ٣٠ •

الفــرد والجمــاعة

الفرد هو وحدة الدراسة السوسيولوجية ، ولا تنطبق عليه الصفة الاجتماعية اذا لم يعش فى مجتمع . فمن الضرورى أن يعيش الانسان فى مجتمع استجابة لميله الطبيعى للحياة الاجتماعية . والانسان الفرد يعيش طوال حياته — أى من المهد الى اللحد — داخل جماعات صغيرة ، فاذا انتهى أجله فانه يقف أمام الخالق سبحانه يوم الحشر فردا ، لقوله تعالى : **« ونرثه ما يقول ويأتيناً فرداً »** . (مريم : ٨٠)

والانسان لا يستطيع أن يعيش الا فى مجتمع من بنى جنسه ، يتبادل الأفكار والعلاقات والمعاملات مع أفراده . فالفرد ، بالمعنى الاجتماعى ، هو الانسان بما له من حقوق وعليه من واجبات فى المجتمع . ويكون عضوا فى جماعات متنوعة على مستوى المجتمع المحلى أو المجتمع الدولى [٢] .

والجماعة ، من وجهة نظر علم الاجتماع هى الأداة التى يستخدمها المجتمع فى تنشئة أفراده وتطبيعهم . وتعرف الجماعة بأنها « شخصان أو أكثر مشتركان فى المعايير والمبادىء والقيم النابعة منهم ، ويكون لكل منهم دور حيال الآخر من أجل تحقيق هدف معين ، يؤدى الى اشباع حاجاتهم الاجتماعية ، ويكون وجودهم معا خاضعا لقواعد اجتماعية محددة بصورة تسمح بأن يتوقع كل من أفرادها سلوك الآخر توقعا واضحا » . ومن هذا التعريف ينبغى أن تتوافر فى الجماعة العناصر التالية [٣] :

١ — أن يكون تكوين الجماعة خاضعا لقواعد اجتماعية معينة : مثل عقود الزواج وما يتصل بها من عادات وعرف وتقاليد ، أو قواعد

---

(٢) زيدان عبد الباقى ، **علم الاجتماع الاسلامى** . ص ٧١ — ٧٢ .

(٣) **المرجع السابق** ، ص ٧٨ — ٨٠ .

توزيع التلاميـــذ على الفصـــول الدراسية ، أو قواعد تكوين الفرق الرياضية ، وما أشبه • فهذه القواعد تحدد حقوق وواجبات كل طرف من أطراف الجماعة حيال الآخر •

٢ — أن يتوافر شرط التفاعل الاجتماعى المباشر :
(Social Interoction)

وقد يكون هـــذا التفاعل اتصـــالا أو تنافســـا أو صراعا أو تكيفا أو تنشئة اجتماعية •

٣ — أن يكون لكل من أفراد الجماعة دور محدد : فالأب فى جماعة الأسرة له دور واضح باعتباره راعيا لتلك الأسرة ، والأم لها دور واضح باعتبارها شريكة الزوج فى رعاية الأسرة ، والأبناء لهم دور أيضا وهو تلقى أسس التربية فى الأسرة وأسس التعليم فى المعاهد التعليمية ، والمواظبة والتحصيل من أجل النجاح والوصول الى درجة معينة من النضج النفسى والاجتماعى المطلوب للمواطن الصالح •

٤ — وحدة الهدف : فكل جماعة ينبغى أن يكون لها هدف تسعى الى تحقيقه •• فجماعة العمل هدفها تحقيق الكفاية الانتاجية من حيث الكم والكيف • وجماعة الأسرة يتحقق فيهـــا حب الحياة والبقـــاء واستمرار النوع •

٥ — شرط التوقع : فهذا التوقع يســـتند الى حقوق وواجبات أعضاء الجماعة التى تحددها قواعد تكوينها • فالعامل أو الموظف الذى لا يقوم بأعباء الوظيفة بالمعدل المطلوب للعمل يتوقع من رئيسه اللوم أو التأنيب أو العقاب •

وترتيبا على ذلك ، فان الانسان كائن اجتماعى لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين فى المجتمع ، وانما من الضرورى أن يعيش فى جماعة ، أو ينتمى الى جماعات مختلفة ، حتى يستطيع اشـــباع حاجاته الاجتماعية •

* * *

● علاقة الفرد بالجماعة :

الجماعة المسلمة هى الأفراد المسلمون جميعا فى صلات بعضهم بالبعض الآخر ، ووجودهم كحقيقة مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة • ولم يعرف القرآن الكريم ، فى أوامره ونواهيه وفى وصاياه العامة ، الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم ، أو بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم • يقول الله تعالى :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور •• » •
(البقرة : ٢٥٧)

والمقصود بالولاية هنا — التى هى التولى والتدبير والحماية — الجماعة المؤمنة • ولكنه فى اعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم الذين آمنوا • وكذلك عندما يوجه الله — سبحانه — أمرا أو نهيا عاما يوجهه الى المؤمنين كأفراد فى صيغة الجمع ، كما فى قوله تعالى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا •• » (النحل : ٩١)

واذا كانت الجماعة المسلمة هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم ، كانت علاقة الفرد بالجماعة هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه • فالفرد باق بكيانه الشخصى المستقل ولم يلغ اذن ، ووجوده كفرد وكوحدة بذاتهـا لم يمس • وكل ماجد له من الجماعة التى هو عضو فيها ، أنه أضيفت اليه اعتبارات خاصة بحكم هذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة •• وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معه ، والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه ، وهى واجبات عليهم أيضا •

والفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة — من وجهـة نظر الاسلام — وحدة تتفاعل مع غيرها ، وتأخذ وتعطى ، لها استقلال مقيد وحرية مقيدة • والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجماعة

المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل بين الحلال والحرام • فالحلال بين والحرام بين •• اذ الحلال هو ما يمثل النفع الفردى أو النفع العام ، وهو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة • والحرام بعكس ذلك ، فهو ما يمثل الضرر الفردى أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة • ولقد أوجب الاسلام على المؤمنين طاعة رسالته ، كما أوجب الاحتكام اليها عند النزاع والاختلاف(٤) • قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » • (النساء : ٥٩)

* * *

الأســـرة

تحظى الأسرة فى التشريع الاسلامى باهتمام كبير ، خاصة وأنها تعتبر النواة التى تنبثق عنها جميع العلاقات البشرية • ويعطى الاسلام للأسرة من العناية والرعاية والحماية من التفكك والانحلال ، ما لم تعطه لها شريعة أخرى ، مؤكدا بذلك تقديره لمكانتها وأهمية دورها الفعال فى بناء المجتمع السليم(٥) •

وتفيد نصوص القرآن الكريم أن الزوجية هى طبيعة المخلوقات فى الكون ، وكان مبدأ الكون أن خلق الله آدم ثم خلق منه حواء ليبدأ الازدواج مع بدء الكون(٦) • قال تعالى :

---

(٤) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** . ص ٢٤٦ — ٢٤٨

(٥) زينب رضوان ، **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى** . (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٢) ، ص ١٤٥ .

(٦) عبد الله الخريجى ، **علم الاجتماع العائلى مع دراسة للعائلة فى الاسلام** . (جدة : دار الشروق ، ١٩٨١) ، ص ٣٧٩ .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. » . (النساء : ١)

وأهداف الزواج تتمشى مع هذا ، فهى تكمل فى الرجل حاجته الى المرأة وفى المرأة حاجتها الى الرجل ، لتتم الزوجية . قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. » . (الروم : ٢١)

وتوضح الآية الكريمة أن كلا من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار فى الآخر ، وأن ذلك يؤدى الى المودة والرحمة ، أى الى الحب والتسامح مجتمعين .

* * *

● وظيفة الأسرة :

ولقد شرع الاسلام الزواج وجعله أساسا للنظام الأسرى فى المجتمع ، وحرص على تأكيد القوامة فيه ، فأعطى الرجل الحق فى القيام على الأسرة والاشراف على شئونها ، وذلك لسببين : أحدهما أن الرجل هو المكلف بالانفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة فى شىء أن يكلف فرد بالانفاق على هيئة ما بدون أن يكون له حق القيام عليها والاشراف على شئونها . والثانى أن المرأة مرهفة العاطفة قوية الانفعال ، وأن ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحى حياتها[٧] .

كما شرع الاسلام الزواج لتحقيق هدف أسمى وهو « حب البقاء » . فالانسان يدرك أنه مهما طال به العمر فلا بد من الموت ، ولذلك يسعى جاهدا الى تحقيق بقائه عن طريق الأولاد والأحفاد الذين يعتبرون امتدادا له ، وهكذا يستمر الكون فى عمرانه . ومن الوظائف الأخرى التى تضطلع بها الأسرة فى المجتمع وظيفة « الانجاب » لتزويد المجتمع بالمزيد من الأعضاء والأفراد . والأولاد متعة صورها القرآن الكريم أدق تصوير حين قال :

---

(٧) على عبد الواحد وافى ، **حقوق الانسان فى الاسلام** «ط٤» . (القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٧) . ص ١٠٣ .

● « **المـال والبنون زينة الحياة الدنيا ..** » (الكهف : ٤٦)

● « **.. ربنا هب لنـا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما** » . (الفرقان : ٧٤)

وقد اعتبر الرسول الكريم ﷺ الأولاد الصالحين من خير ما يخلفه الأب ، حين قال :

« اذا مات الانسان انقطع عنه عمله الا من ثلاثة أشياء : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . (رواه مسلم)

كذلك تحقق الأسرة وظيفة الأمن والاستقرار النفسى ، ولهذا ينظر الاسلام اليها على أنها أصل الحياة الاجتماعية الانسانية ، ولكى تتحقق رؤى الاسلام للأسرة ، وضع لها دستورها الذى تسير عليه ، فبدأ بأن حث الناس على الزواج بهدف الاحصان ، قال تعالى :

● « **والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ..** » (النساء : ٢٤)

● « **.. والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخـدان ..** » . (المائدة : ٥)

ونهى عن زواج المتعة لأنه لا يستهدف الا اشباع الشهوة ، ولا يكفل الاستقرار والاستمرار .

وعلى هذا فقد استهدف الاسلام من الأسرة الاضطلاع بعدة وظائف ، وربط هـذه الوظائف الأسرية بعضـها بالبعض الآخر فى صورة فطرية ونفسية واجتماعية . ولهذا ارتبطت وظيفة تحقيق الأمن والاستقرار بوظيفة الحفاظ على النوع واستمراره ، وتزويد المجتمع بالأعضاء الجدد الذين يجددون شبابه وينعشون قواه الفكرية والانتاجية . ومن هذا يتضح مثلا أن سكون الزوج لزوجته والزوجة لزوجهـا أن يستمر النوع البشرى من خلال كيان عائلى منظم ومستقر له تبعاته

وحقوقه • ومعنى السكن هنا أن يطمئن كل منهما الى حياته بسبب الآخر ، بحيث تكون الحياة بعيدة عن القلق والهموم والمخاوف • هذا الى جانب أن يكون كل من الزوجين ستارا للآخر وواقيا له يحول بينه وبين الزلل ويقيه من الجنوح • قال تعالى : **« •• هن لباس لكم وأنتم لباس لهن •• »** • (البقرة : ١٨٧)

والمغزى أن للزواج فى الاسلام عدة أهداف ، على رأس هذه الأهداف (الوظائف) هدفان رئيسيان هما الاستقرار النفسى والمادى ، والتمكن من التغلب على نزوات الاغراق ودوافع الجنوح عن الطريق القويم فى سبيل تحقيق الانسانية(٨) •

* * *

● مبادىء الاسلام فى تأسيس الأسرة :

أفرغ الاسلام على عقد الزواج صبغة « الميثاق الغليظ » ، وصور امتزاج الطرفين فيه بقوله تعالى : **« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن »** ، وركزه على عناصر « السكن والمودة والرحمة » ، وجعله أساسا لتسلسل الذرية « بالبنين والأحفاد » ، كما جعله الخلية الأولى التى تتكون منها الأسرة وتتفرع عنها غصون الانسانية « شعوبا وقبائل » تتعارف وتتعاون ، وتكون منها الأمة المثالية الفاضلة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعلى للانسان مجده ، وتحقق له معنى الخلافة فى الأرض التى خلق لأجلها ، وفضل بها على كثير من الخلق •

ومن هنا عنى الاسلام بجملة من الوسائل التى من شأنها اذا روعيت ، كانت قوة فى الحياة الزوجية ، وقوة فى استمرارها ووقايتها من التعرض للتدهور والانحلال •• وكان منها ما يجب اتخاذه عى الزواج منذ اللحظة الأولى ، أى لحظة التفكير فيه ، والتوجه اليه والعزم عليه •• وكان منها ما تجب مراعاته بعد أن يتم عقد الزواج ، وتسير الحياة

---

(٨) عبد الله الخريجى ، **نظم المجتمع الاسلامى** • ص ٥١ — ٥٣ •

الزوجية فى طريقها •• وكان منهـا ما تجب مراعاته حين الشعور بمبدأ المزعزعة والاضطراب ، فترجع النفوس عن غيها وتقف فى جانـب المحافظة ودوام الاتصال ، بدلا من الاندفاع فى تيار الغضب والانحلال.

وسنناقش هذه المبادىء فيما يلى [٩] :

١ ــ التعرف :

ان أول ما تجب مراعاته من تلك الوسائل قبل الاقدام على الزواج أن يتعرف الطرفان ، كلاهما على صاحبه ، فلا يتركان الأمر للمصادفة •• والاسلام فى هذه الناحية يوصى باختيار من له دين وخلق ، ويحـذر الاعتماد على مجرد الجمال أو الحسب أو المـال • فان لصـاحب الدين والخلق ، من دينه وخلقه ، أقوى مرشد وأهدى سبيل الى تقدير هذه الرابطة تقديرا يدفع الى القيـام بمقتضاها ، والمحافظة على حقوقها • وليس من ريب فى أن سوء الخلق يقضى على كل خير ، ويبعث الريبـة فى كل مظهر ، وعندئذ لا ينفع جمال ولا مال فى انشاء هذه الرابطـة الشريفة • وفى الحديث النبوى الشريف :

ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« تنكح المرأة لأربع : لمـالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » • (متفق عليه)

ــ وعن أبى هريرة قال : قيل لرسول الله ﷺ : أى النساء خير ؟ قال : « الذى تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره » • (رواه النسائى والبيهقى)

٢ ــ الخطبـــة :

اذا ما تم تعرف أحد الطرفين على صاحبه ، واطمأنت النفوس الى حسن الأخلاق الذى هو أساس فى حسن المعاملة ونمو الرابطة وازدهارها ،

---

(٩) محمود شلتوت ، **الاسلام عقيدة وشريعة** • ص ١٤٨ — ١٧٠ •

فان الاســلام يوصى بعد ذلك بخطوة ثانية ، هى خطوة الخطبة ، خطوة الاختبار ، عن طريق الحس ، مشاهدة واستماعا ، يرى وجهها ويديها وقدميها ، ويستمع لحديثها ، وبهـذا الاختبار يتعرف كل من الطرفين ما لصاحبه من المزايا الجسمية والفكرية والصوتية • ومن هذا التعرف تنبت الرغبة ، وتعرف اتجاهات القلوب ، والأرواح — كما قيــل — جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف •

وان أعدل الآراء فى الخطبة واختبار الخاطب لمخطوبته ، هو ما جاءت به الشريعة الاسلامية ، وتضمنه ارشاد النبى الكريم لأمته عليه السلام • وهو أن يرى كل منهما صاحبه ، وأن يستمع الى حديثه ، وأنه لا بأس أن يجتمعا ومعهما بعض الأهل والأقارب ، دون أن تسد منافذ الرؤيــة ويحكم سدها ، ودون أن يطلق لهما السراح ، ويرخى لهما العنان • وفى الحديث النبوى الشريف : — عن المغيرة بن شعبة ، أنه خطب امرأة ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنظرت اليها » ؟ قال : لا ، قال : « انظر اليها، فانه أحرى أن يؤدم بينكما (يدوم الوفاق بينكما) » •

(رواه النسائى والترمذى)

٣ — الرضــــا :

لم تكتف الشريعة فى وسائل تكوين الأسرة وبناء الحياة الزوجيــة على التعرف والاختبار السابقين ، وانما أوجبت بعد ذلك تمام الرضــا من الطرفين وجعلته شرطا فى صحة العقد • ولم تقم فى الزواج وزنــا لمجرد رضا الولى ، ولو كان أبا ، ما دام الطرفان أو أحدهما غير راض بقلبه وضميره ، ان لم يكن بنطقه ولسانه ، وكما لم تقم الشريعة فى الزواج وزنا لمجرد رأى الولى ، لم تقم فيه وزنا أيضا لمجرد رأى المخطوبة ، وانما جعلت الأمر شورى بينها وبين أبويها ، فأمرت الولى أن يأخذ رأى المخطوبة فى شريك حياتها ، وأن يأخذ رأى أمها التى هى أدرى النــاس بأحوالها ، وصح فى ذلك قول رسول الله ﷺ :

« أيما امرأة تزوجت بغير اذن وليها فزواجها باطل » وكررها ثلاثا •

(رواه أحمد وأبو داوود)

ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تُنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن • قالوا : يارسول الله كيف اذنها ؟ قال : أن تسكت » • (رواه مسلم)

ــ عن ابن عباس : « أن جارية بكرا ، أتت رسول الله ﷺ وذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة ، فخيرها النبى » •

(رواه أحمد وأبو داوود)

٤ ــ الكفـــاءة :

ولم تقف الشريعة عند هذه الوسائل من التعرف ، والاختبار ، والرضا . وانما طلبت شيئا آخر ، هو ضمان لقوة الألفة وحسن العشرة ، ويسر تبادل الرأى والاقتناع والموافقة •• ذلك هو أن يكون الزوج كفؤا للزوجة ، فى الفضائل التى يعتز الناس بها فى حياتهم الاجتماعيـــة وهو شأن صالح الزوجة وصالح أسرتها •

وليس من ريب ، فى أن انحطاط مكانة الزوج من مكانة الزوجة يجعلها دائما تنظر اليه بعين الاحتقار ، وتتلقى فى شأنه من الناس نظرات النقد • ومن هنا تأبى عليها نفسها أن تخضع لرأيه ، أو تنزل على مقتضى قوامته وسلطانه ، وهو زوج فى نظر نفسه وله حق الأزواج ، وذليل فى نظرها ، فلا تمنحه ذلك الحق ، فتختلف الحياة •

٥ ــ المهـــر :

فرضت الشريعة للزوجة منحة تقدير تحفظ عليها حياءها وخفرها ، يتقدم بها الزوج معبرا عن تقديره اياها وعن رغبته فى اتمام الزواج بها • هذه المنحة تعرف باسم « المهر / الصداق » ، وقد حثت الشريعة بكثير من الارشادات النبوية على يسره وخفته • والواقع أن التشديد على الأزواج بالمغالاة فى المهر ليس من مصلحة الفتيات ولا من هناءتهن فى حياتهن الزوجية • فالزوج الذى يستدين بسبب زواجه ، كثيرا ما يصـــاب بانقباض النفس وضيق الصدر ، وغالبا ما يقترن ذلك بنظرته

الى من كانت سببا فى شقائه بالدين المؤرق ، فالدين هم بالليل ومذلة بالنهـــــار •

ومن هنا ، كان من الوصايا التى تلحق بالتعرف ، والاختبار ، والرضـــا ، والكفاءة ، يسر المهور وعدم المغالاة فيها ، حتى تنشرح الصدور ، وتقوى الألفة ، وتطيب الحياة للزوجين • وفى الحديث النبوى الكريم :

— « لا يكون نكاح الا بولى وشاهدين ومهر ما كان قل أو كثر » •
(رواه الطبرانى)

— « من أصدق امرأة صداقا وهو مجمع على الا يوفيها اياه لقى الله تعالى وهو زان ، ومن أدان ديناً وهو مجمع على ألا يوفيه لقى الله عز وجل وهو سارق » • (رواه الطبرانى)

— « من يمن المرأة تسهيل أمرها ، وقلة صداقها » •
(رواه ابن حبان والحاكم)

— عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « ألا لا تغالوا فـــى صدقات النساء فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكـــان أولاكم بها نبى الله ﷺ • ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئا من نسائه ولا أنكح شيئا من بناته على أكثر من اثنتى عشرة أوقية » •
(رواه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى)

— عن أنس قال : تزوج أبو طلحة أم سليم فكان صداق ما بينهما الاســـلام ، أسلمت أم سليم قبل أبى طلحة ، فخطبها فقالت : « انى قد أسلمت فان أسلمت تزوجتك فأسلم ، فكان صداق ما بينهما » •
(رواه النسائى)

هذا ما تراه الشريعة من الوسائل التى يجب مراعاتها قبل الاقدام على عقد الزواج ، تركيزا له على الأسس القوية المتينة ، وبعدا به عن اللبنات الرطبة التى لا تلبث أن تذوب ، فينهار البنيان ، ويتلاشى الأمل •

٦ — دعائم الحياة الزوجية السعيدة :

اذا ما تمت هذه المقدمات ، واطمأنت النفوس الى الاقتران ، وجرى العقد بين الزوجين ، ودخلا فى نطاق « الميثاق الغليظ » ، فان الاسلام يقرر بينهما من الحقوق والواجبات المتبادلة ، مابه تحسن المعاشرة ، وتنمو الرابطة ، وتطيب الحياة . قال تعالى :

● **« .. ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .. »** (البقرة : ٢٢٨)

● **« .. ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن .. »** .
(الممتحنة : ١٠)

● **« .. ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف ، حقا على المحسنين »** . (البقرة : ٢٣٦)

● **« وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »** . (النساء : ١٩)

● **« .. فامساك بمعروف أو تسريح باحسان .. »** .
(البقرة : ٢٢٩)

● **« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فأتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى »** . (الطلاق : ٦)

● **« .. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن .. »** .
(النساء : ٣٢)

ومن الحديث النبوى الكريم :

— « حق الزوج على المرأة أن لا تهجر فراشه ، وأن تبر قسمه ، وأن تطيع أمره ، وأن لا تخرج الا باذنه ، وأن لا تدخل عليه من يكره » .
(رواه الطبرانى)

— « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » . (رواه الترمذى)

— « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » •
(رواه الترمذى)

— « النساء شقائق الرجـال » • (رواه أبو داوود وأحمد)

— « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ، فانما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » • (رواه ابن ماجه والترمذى)

— « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم »
(رواه الترمذى)

— « استوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يـزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » • (متفق عليه)

— « اذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وان كانت على التنور » •
(رواه الترمذى والنسائى)

— « اذا دعا الرجل امرأته الى فراشة فلم تأته فبات غضبـان عليهـا لعنتها الملائكة حتى تصبح » • (متفق عليه)

٧ — درجة الرجال على النساء :

فى القاعدة التى قرر القرآن بها المماثلة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات ، قرر على الرجل مسئولية الهيمنة والقوامة ، وجعله المكلف بحق المرأة فيما يصل بها الى الخير ، ويدفع بها عن الشر • قال تعالى :

● **« •• ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم »** • (البقرة : ٢٢٨)

● **« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم •• »** • (النساء : ٣٤)

وهذه الدرجة ليست درجة السلطان أو درجة القهر ، وانما هى درجة الرياسة الأسرية الناشئة فى عهد الزوجية .. ودرجة القوامة التى كلفهـا الرجل تزيد فى مسئوليته عن مسئولية الزوجة ، فهى ترجع اليـه فى شأنها وشأن أبنائها وشأن منزلها ، تطالبه بالانفاق ، وتطالبه بما ليس فى قدرتها ، وما ليس لها من سبيل اليه . وأساس هذه المسـئولية فى تحميل الرجل اياها هو ما أشارت اليه الآية الكريمة : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ..** » حيث تقضى أمرين يتحملهما طبيعة الرجل : القيام بمشاق الأمور ، وأساس ذلك ما أودعه الله فيه من قوة فى البدن والعزم والعمل ، ثم الانفاق فيما يحتاج اليه البيت من مأكل وملبس ، وما تنشرح به صدور أفراد الأسرة .

٨ — التشـــاور :

بنى الاســلام المجتمعات فى ادارتها وتنظيم شئونها — مع تعيين مصدر القوامة فيها — على أساس من الشورى وتبادل الرأى .. فيشاور الرئيس المرؤوس ، والحاكم المحكوم ، ويكون العزم فى الفعل على ما يتم عن طريق المشورة . قرر الاسلام هذا وجعله شأنا من شـئون المؤمنين فى مجتمعهم ، فقال : « **.. وأمرهم شورى بينهم ..** »

(الشورى : ٣٨)

وقد أمر بها النبى ﷺ ، تعرفا لما ينبغى أن يكون ، واشعارا لأصحابه بأنهم أصحاب شأن فى أمور المجتمع ، فقال : « **.. وشاورهم فى الأمر** »

(آل عمران : ١٥٩)

ولم تكن الشورى أساسا لمجتمع الحاكم والمحكوم فقط ، وانما هى أساس لكل مجتمع كبير أو صغير مثل مجتمع الرجل وزوجه وأسرته . وقد جاء ذلك صراحة فى القرآن الكريم فيما يتعلق بحق ابداء الرأى فى فطام الطفل ورضاعه ، ولم يجعل للرجل ولا للمرأة حق الاستئثار بـه دون الرجوع الى صاحبه . قال تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، ولا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما .. » .
(البقرة : ٢٣٣)

هكذا نجد الحقوق موزعة على الزوجين .. ارضاع على الزوجة ، ونفقة على الزوج ، دون ارهاق ولا مشقة أو ايذاء ، ثم تشاور فى الرأى وتراض من جهة الرضاع أو الفطام .

واذا كان للزوجة حق ابداء الرأى فى نظام تربية الطفل وارضاعه ، واشترط القرآن فى ذلك ارادتها مع ارادة الرجل ، ورضاها مع رضاه ، فان ذلك يكون شأنها معه فى كل ما يعترضهما من شئون تحتاج للتشاور وتبادل الرأى . وهذا من أقوى ما يوثق العرى بين الزوجين ، ويجعل منهما قلبا واحدا ، وعينا واحدة ، فيلطف جوهما ، وتنعم حياتهما .

* * *

المرأة فى نظر الاسلام

لقد عرض القرآن الكريم لكثير من شئون المرأة فى أكثر من عشر سور ، منها سورتان عرفت احداهما بسورة النساء الكبرى — وهى سورة النساء — وعرفت الأخرى بسورة النساء الصغرى — وهى سورة الطلاق ، وعرض لها فى سور : البقرة ، والمائدة ، والنور ، والأحزاب ، والمجادلة والممتحنة ، والتحريم (١٠) .

وقد دلت هذه العناية على المكانة التى ينبغى أن توضع فيها المرأة فى نظر الاسلام . وانها مكانة لم تحظ المرأة بمثلها فى شرع سماوى سابق ، ولا فى اجتماع انسانى ، تواضع عليه الناس فيما بينهم واتخذوا له القوانين والأحكام . وعلى الرغم من هذا فقد كثرت الأقاويل حول وضع المرأة فى الاسلام .. فزعم زاعمون أن الاسلام

---

(١٠) محمود شلتوت ، **القرآن عقيدة وشريعة** ، ص ٢١٨ .

إهتضم حقها ، وأسقط منزلتها ، وجعلها متاعا فى يد الرجل يتصرف فيها كيف يشاء .. يزعمون هــذا والقرآن هو الذى يقول :

« .. **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ..** » . (البقرة : ٢٢٨)

والحق أن الاســلام منح المرأة كل خير وصانها من كل شر . وسنعرض فيما يلى الخطوط الأولى التى رســمها القرآن الكريم ، فى سبيل الارشاد الى حقوق المرأة وأحكامها ومنزلتها فى ضوء أحكام الشريعة الاسلامية (١١) .

١ ــ الأصل الذى خلق منه الانسان :

أول ما يطالعنا من تلك الخطوط ، أن القرآن الكريم حينما تحدث عن الأصل الذى تفرع منه الانسان ، جعل المرأة شريكة فيه للرجل ، ومن مجموعها تعددت القبائل والشعوب ، وانتسبت الأفراد بالبنوة لكل من الرجل والمرأة . وبذلك كان الرجل أباً ، وكانت المرأة أماً ، واعتبر القرآن الكريم ذلك نعمة على الانسان ، توجب عليه الشكر ، وتوجــب عليه النظرة المستقيمة الى أخيه الانسان الذى يشاركه معنى الانسانية ، وفى نسبته الى أصله الذى تكونا منه .

ومعنى هذا أنه لا تفاضل بينهما من جانب الانسانية ، وأن التفاضل انما يكون بما يكتسبه الانسان من الخلال التى ترقى بالانسانية الى المستوى الفاضل . ولعلنا نجد هذا فى مثل قوله تعالى :

● « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ..** » . (النساء : ١)

● « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ..** » .

(الحجرات : ١٣)

---

(١١) **المرجع الســابق** ، ص ٢١٩ ــ ٢٤٠ .

ولقد سمى الرجل والدا ، والمرأة والدة ، وجاءت التعاليم القرآنية بوصفهما معا موضع التكريم والاجلال . قال تعالى :

● **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا .. »** . (النساء : ٣٦)

● **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا .. »** . (الاسراء : ٢٣)

والقرآن لا يقف عند هـذا الحد من التسوية بين « الوالدين » فى واجب الاحسان والاجلال ، بل يرشد الى ما للوالدة من جهـود مضنية فى تربية الأبناء ، ليس شىء منها للوالد ، ونرى ذلك فى مثل قوله تعـالى :

« ووصينا الانســان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين .. » . (لقمان : ١٤)

وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنـه أنه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » . (متفق عليه)

٢ ـ المرأة ذات مسـئولية :

ان المرأة ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل .. فهى مسئولة عن نفسها ، وعن عبادتها ، وعن بيتها ، وعن جماعتها . وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية الرجل ، وأن منزلتها فى المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منهـا من طاعة أو مخالفة . وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة ، ومعصـيته لا تضرها ، وهى صالحة مستقيمة . قال تعـالى :

● **« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »** . (النساء : ١٢٤)

● « **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ..** » . (آل عمران : ١٩٥)

● « **.. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ..** » . (النساء : ٣٢)

هذه هى شريعة الله سبحانه ، تسئل المرأة عن نفسها ، ولا يتحمل الرجل من خطيئتها شيئا ، ويسئل الرجل عن نفسه ولا تتحمل المرأة من خطيئته شيئا . قال تعالى :

« **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** » . (التحريم : ١٠ — ١١)

واذا كانت المرأة مسئولة ، مسئولية خاصة فيما يتعلق بعبادتها ونفسها ، فهى فى نظر الاسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والارشاد الى الفضائل ، والتحذير من الرذائل . وقد صرح القرآن بمسئوليتها فى ذلك الجانب ، وقرن بينها وبين أخيها الرجل فى تلك المسئولية ، قال تعالى :

● « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم** » . (التوبة : ٧١)

● « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم** » .

(التوبة : ٦٧ — ٦٨)

ان مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هى من أكبر

المسئوليات فى نظر الاسلام ، وقد سوى فيها بصريح هـذه الآيات بين الرجل والمرأة . وعلى ذلك فليس من الاسلام أن تكف المرأة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اعتمادا على ظن أو وهم أنه شأن خاص بالرجال دون النساء .

٣ — تعلم المرأة :

ليس من شك فى أن تحميل المرأة المسئوليات ، يجعل لها أو عليها الحق فى أن تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجه الذى حددت به وهو تحرى الخير والصلاح ، والبعد عن الشر والفساد . ومن هنا أوجب الاسلام عليها — كما أوجب على الرجل — معرفة العقائد والعبادات ، والحلال والحرام فى المأكل والمشرب وسائر التصرفات .

ولقد رفع الاسلام عنها الالزام ببعض التكاليف ليس لأنها غير أهل لها ، ولو فعلتها لم تقبل منها ولم تثب عليها ، ولكن أبيح لها تركها تخفيفا عنها ، وترخيصا لها ، وبعدا بهـا عن مزاحمة الرجال ، وتفريغا لها لرعاية شـئون أسرتها . وذلك كما فى صلاة الجمعة والجهاد ، ولو أنها آثرت حضور الصلاة الجامعة ، أو دخلت الصفوف المحاربة ، لمـا كان عليها من حرج فى الدين .

٤ — أهلية المرأة فى العقود :

لم يكن من المعقول أن يضع الاسلام المرأة هـذا الوضع من جهة المسئوليات عامها وخاصها ، ومن جهة تعلمها ما تحتاجه فى القيام بها ، ومن جهة ما أفسح المجال لها فيه .. لم يكن من المعقول بعد هـذا أن يسلبها أهلية مباشرة عقود البيع والشراء ..

فأباح لها أن تملك ، وأن تتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد أن تباشره بنفسها ، وأباح لها أن تضمن غيرها وأن يضمنها غيرها . وأباح لها كل ذلك على نحو ما أباحه للرجال سواء بسواء .. وهـذه منزلة قد منحها الاسلام للمرأة باعتبارها انسانا كامل الانسانية ، مما لم يتوفر للمرأة فى الأديان الأخرى .

٥ ــ شهادة المرأة وميراثها :

لا يزال بعض الناس الى يومنا هــذا يرى أن انسانية المرأة أقل من انسانية الرجل ، وأنها لذلك كانت فى الميراث على النصف من ميراث الرجل ، وكانت كذلك فى الشــهادة ، ويقولون ان ذلك هو حكم الاسلام وقد قرره القرآن الكريم بقوله :

● « .. **للذكر مثل حظ الأنثيين** .. » . (النساء : ١١)

● « .. **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** .. » . (البقرة : ٢٨٢)

والحق أن حكم المرأة فى الميراث ليس مبنيا فى الاسلام على أن انسانيتها أقل من انسانية الرجل ، وانما هو مبنى على أساس آخــر قضت به طبيعة المرأة فى الحياة العاملة ، وكان من مقتضاه :

ــ أن يحتمل الرجل نفقات الأسرة من زوجة وبنين وأقارب يعولهم .

ــ وأن يحتمل كذلك المهر الذى يقدمه للمرأة عنوانا على رغبته فيها وبذله ما يجب فى سبيل الاقتران بها .

ــ وأن تحتمل المرأة تدبير شئون البيت ، وشئون الحمل والوضع ، والتفرغ لحضانة الأطفال والقيام على أمرهم .

وفى ظل هــذا الأساس نرى بالموازنة بين نصيب الرجل والمرأة من المسئولية ، أن المرأة أسعد حظا من الرجل فى نظر الاسلام :

ــ فقد أوجب لها مهرا لا حد لأكثره :

« .. **وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا** .. » .

(النساء : ٢٠)

ــ وأوجب لها على الرجل نفقتها وكسوتها وجميع ما تحتاج اليه :

« **لينفق ذو سعة من سعته** .. » . (الطلاق : ٧)

ــ وأوجب لها اذا ما طلقت نفقة العدة ، وأوجب لها « المتعة » وهى ما يبذله الرجل بعــد طلاقها غير نفقــة العدة ، مما تحفظ به نفسها وكيانها :

« **وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقا على المتقين** » .

(البقرة : ٢٤١)

هـــذا هو الأساس الذى بنى عليه الاسلام أن المرأة تكون فى الميراث على النصف، من الرجل ، فالرجل مسئول عن كل نفقات الزوجة والأسرة ، ومن الواضح أن وضعهما فى الميراث لا علاقة له بالانسانية التى يشتركان فيها على حد سواء .

أما بالنسبة للشـــهادة ، فان قوله تعالى : « **فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** » ليس واردا فى مقام الشهادة التى يقضى بها القاضى ويحكم ، وانما وارد فى مقام الارشاد الى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل . قال تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ..** » .

الى أن قال : « **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ..** » . (البقرة : ٢٨٢)

فالمقام مقام استيثاق على الحقوق ، والآية ترشد الى أفضل أنواع الاستيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما .

ولقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل — سواء بسواء — فى شهادات اللعان ، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه ، وليس له على ما يقوله شهود ، فقال تعالى :

« **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليهـا ان كان من الصادقين** » . (النور : ٦ — ٩)

أربع شهادات من الرجل يعقبها استمطار لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويقابلها ويبطل عملها أربع شـــهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها ان كان من الصادقين .. وبعد ، فهذه عدالة

الاسلام فى توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة ، وهى عدالة تحقق أنهما فى الانسانية سواء ..

* * *

بر الوالدين

الاسلام دين الرحمة ، دين الحب ورعاية الجميل . وهو الى جانب ذلك دين الحق فى كل ما يقرر ، فاذا أثنى على أمر خيراً أو أوصى بحقه فانه يبنى ذلك على حقائق جليلة ، ولحكم سامية ، ولتحقيق مصالح عظيمة .. ولقد جعل الله بين الناس ضروبا من الصلة يتراحمون بها ويتعاونون على دفع المضار وجلب المنافع ، وأقوى هـذه الصلات صلة الرحم(١٢) . قال تعـالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » . (النساء : ١)

هـذه الآية الكريمة فيها تعظيم لحق الرحم ، وتأكيد للنهى عن قطعها . فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ان الرحم شجنة (مشتقة) من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته » . (رواه البخارى والترمذى)

وعنه أن النبى ﷺ قال :

« ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب . قال : هو لك » قال رسول الله ﷺ : فاقرأوا ان شئتم : **« فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »** . (رواه البخارى ، والآية من سورة محمد : ٢٢ — ٢٣)

---

(١٢) سعاد ابراهيم صالح ، **علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية** (جدة : تهامة ، ١٩٨١) ، ص ١٥ .

ان صلة الآباء بالأبناء صلة فطرية مدفوعة بحب البقاء الذى يدفع الانسان الى افراغ محبته فى ذريته ، اذ يرى فى نسله امتدادا لحياته واحياء لذكراه ، لذا كانت الذرية زينة الحياة الدنيا ، فقال تعالى :

« المـال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » • (الكهف : ٤٦)

فالمـال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المـال نفعا ، وفى البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا • قال تعالى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » • (آل عمران : ١٤)

فالمرتبة الثانية من المشتهيات حب الولد • ولمـا كان حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى فلا جرم أن خصه الله تعالى بالذكر • وهناك أسباب لكون حب البنين أقوى والتمتع به أعظم ، منها (١٣) :

— الأمل فى نصرة الذكر وكفالته عند الحاجة اليـه فى الضعف والكبر •

— كونه فى عرف النـاس عمود النسب الذى تتصل به سلسلة النسل ويبقى به ما يحرصون عليه من الذكر •

— أنه يرجى به من الشرف ما لا يرجى من الأنثى ، كالقيـادة والزعامة •

— الشعور بأن الأنثى انما تربى لتنفصل عن بيتها وعشيرتها ، وتتصل ببيت آخر تصبح عضوا من عشيرته •

لهذه المعانى السابق ذكرها من حب الذرية ، وبيان الصلة الفطرية التى تربط الآباء بأبنائهم ، كانت توصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة • قال تعالى :

● **« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شـيئا ، وبالوالدين احسانا •• »** • (الأنعام : ١٥١)

---

(١٣) **المرجع السـابق** ، ص ١٧ •

● « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » • (الاسراء : ٢٣ — ٢٤)

● « ووصينا الانسان بوالديه حسناً ، وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » • (العنكبوت : ٨)

● « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير • وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا •• » • (لقمان : ١٤ — ١٥)

● « ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى ، انى تبت اليك وانى من المسلمين » • (الأحقاف : ١٥)

ومن الحديث النبوى الكريم :

— عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب الى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » • (متفق عليه)

— عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » • (متفق عليه)

— « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخط الرب فى سخط الوالدين » • (رواه الحاكم)

ـ عن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : « نعم ، الصلاة عليهما (الدعاء لهما) ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما » .

(رواه أبو داوود)

ومن الصور التى أوصى الله بها الآباء بأبنائهم قوله تعالى :

● **« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .** (النساء : ٩)

● **« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب .. » .** (النحل : ٥٨ ــ ٥٩)

● **« يوصيكم الله فى أولادكم .. » .** (النساء : ١١)

● **« ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم .. » .**

(الأنعام : ١٥١)

● **« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .**

(الأنعام : ١٤٠)

● **« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. » .**

(البقرة : ٢٣٣)

ومن الحديث النبوى الكريم :

ـ « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

(رواه أبو داوود)

ـ « سووا بين أولادكم فى العطية ، فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء » . (رواه الطبرانى)

ـ « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا » .
(رواه أبو داوود والترمذى)

ـ « ما من مسلم تدرك عنده ابنتان فيحسن صحبتهما الا أدخلتاه الجنــة » . (رواه البخارى)

ـ « يأكل الوالدان من مال ولدهما بالمعروف ، وليس للولد أن يأكل من مال والديه الا باذنهما » . (رواه الديلمى)

لقد جاءت توصية الآباء بالأبناء فى أكثر من آية مقرونة بعبادة الله والنهى عن الشرك وقرن شكره تعالى بشكرهما ، وما ذلك الا لأن للأبوين فضلا عظيما ومنزلة عالية ، ورباط الأبوة بالبنوة ان لم يقم على البر والاحسان تفككت عرى المحبة والألفة ونشبت العداوات وامتلأت الصدور بالضغائن . لذلك جعل الله الوصية بالوالدين بعد النهى عن الاشراك به لمـا لهذه الصلة القوية من أثر فعال فى انتظام الحياة[١٤].

* * *

(١٤) **المرجع الســابق** ، ص ٢٧ — ٢٨ .

الفصل السابع.

خاتمة

الاســـلام دين البشرية جمعاء •• من لدن آدم حتى الرســـالة المحمدية التى بها ختم الله ـــ سبحانه ـــ الرسالات السماوية • وقد أكد القرآن الكريم هـــذا المعنى تأكيدا تاما على لسان نوح ، وابراهيم ، واسماعيل ، ويعقوب ، وموسى ، ويوسف ، عليهم السلام ، وعلى لسان حواريى عيسى عليه السلام ••

ـــ وعندما ندرس الاسلام نجد أن له منهاجه السياسى المستقل ، حيث نرى فيه نظرة الاسلام المنفردة الى موضوع الأمة ، والوطن ، ونظام الحكم ، وطريقة الشورى ، والقضاء ، والأجهزة التنفيذيـــة ، والتقسيمات الادارية ، وما شابهها •• كما نجد أن له منهاجه الاجتماعى المستقل ، من حيث نظرة الاســـلام المتميزة للانسان الفرد والجماعة والأسرة والحياة الاجتماعية •• وللاسلام منهاجه الأخلاقى ، حيث نجد طريقا أخلاقيا واضحا شـــاملا متكاملا واقعيا يرشدنا على السلوك القويم •• وللاسلام منهاجه التعليمى المستقل الذى يعمر الدنيـــا ولا ينسى الآخرة ، ونرى جوانب هـــذا المنهاج متكاملة لا نقص فيها ولا افراط أو تفريط •• وللاسلام منهاجه الاقتصادى المستقل ، من حيث تنظيم الملكية ، وحل المشكلات الاقتصادية •• وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشرى وشئون الحياة الدنيا الا وللاسلام فيها حكم ، ومجموع هذه الأحكام هى بناء الاسلام الذى تقوم دعائمه فوق أركانه ••

ولقـــد حاول الكاتب ـــ فى ســـتة فصـــول ـــ أن يبرز فكرة

« الدين للحياة » ، من خلال مناقشة دور الاسلام فى الشئون الدنيوية •
فالمغزى أو المحور الذى تدور حوله فكرة الكتاب ، هى ابراز أحكام الاسلام وشريعته السمحة فى كل شأن من شئون الحياة الدنيا ••

وعلى هذا الأساس تناول الكاتب فى الفصل الأول ، بعنوان « الدين وشئون الحياة » ، نظام الحكم ، باعتبار أن الحكومة الاسلامية ضرورية للحفاظ على العقيدة ، واقامة العبادات ، وحفظ الأرواح والأعراض ، واقامة الجهاد ، وحفظ الأموال ، واقامة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والأخلاقية والثقافية والعسكرية • كما أن الحكومة ضرورية من أجل اعلاء كلمة الله ، من حيث الالتزام بشريعة الله ، وتنفيذها لأحكام الخالق سبحانه •• ثم أبرز الكاتب مفهوم وحدة الأمة الاسلامية ، ومن أهم مظاهرها :

١ — « وحدة العقيدة » المستقاة من القرآن الكريم الذى أرسى دعائمها وأوضح معالمها ، ومن صحيح السنة المحمدية •

٢ — « وحدة العبادة » حيث لا يتحقق الايمان بالله الا بالعبادة ، ولا تقوم انسانية الانسان الا بها •

٣ — « وحدة السلوك » حيث أمرنا الله تعالى أن نقتدى برسول ﷺ فى سلوكنا •

٤ — « وحدة المشاعر والأفكار والتصورات » حيث ان للأمة الاسلامية طريقها المتميز وذكرها المنفرد المقيد بكتاب الله تعالى •

٥ — « وحدة التاريخ والأمة » حيث ان التاريخ الذى ينتسب اليه المسلم هو تاريخ الأمة الاسلامية ، كما أن الاسلام عقيدة وعبادة وسلوك ، واللغة هى تعبير عن هذه المعانى •

٦ — « وحدة الدستور والقيادة والقانون » اذ أن منبع الدستور والقانون للأمة الاسلامية هو القرآن والسنة ، ولا يجوز أن يكون للمسلمين قانون يخالف شريعة الله ، وهذه القوانين شاملة لمختلف نواحى الحياة وتستهدف توفير الكرامة والسعادة والسلام للناس جميعا ، هذا

بالاضافة الى أن الأمة الاسلامية لها قائد واحد فى الأصل هو رسول الله ﷺ ، وبعد أن أدى رسالته كان على المسلمين أن يختاروا خليفة لــه لقيادة المسلمين •

وانتقل الكاتب الى مناقشة « المجتمع الاسلامى » •• فالفرد مــع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة ــ من وجهة نظر الاسلام ــ وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى ، ولها استقلال مقيد وحرية مقيدة • والجماعة الاسلامية ذات هدف موحد يتمثل فى عبادة الله الواحد الأحد • ولقد قامت الجماعة الاسلامية على الأسس الآتية : أن تتجه عبادتهــا الى معبود واحد هو الله الخالق سبحانه ، وأن تعيش فى ســلام مع غيرها من الجماعات الأخرى ، وأن تدافع عن كيانها ضد أى هجــوم أو غزو ••

ان الشعور بالأمن والطمأنينة ، أى سكينة النفس ، هى الينبوع الأول للسعادة ، وهى ثمرة من ثمار دوحة الايمان ، وشجرة التوحيــد الطيبة • فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين ليثبتوا ، ويرضوا ، ويوقنوا ، ويصبروا • واذا تساءلنا : « لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس وطمأنينة القلب » ؟ نجد أن الجواب يتلخص فى النقاط الآتيــة :

١ ــ استجابة المؤمن لنداء الفطرة ، وهى فطرة متسقة مع فطرة الوجود الكبير •

٢ ــ أهتداء المؤمن الى سر وجوده •

٣ ــ نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك •

٤ ــ المؤمن يعيش فى معية الله وفى صحبة النبيين والصديقين •

٥ ــ الرضــا واليقين ، حيث يرى المؤمن ــ بتوجيه كتاب الله له ــ آثار نعمة الله عليه فى كل شىء حوله •

وبالنسبة « للسياسة التعليمية » ، نجد أن الهدف الاستراتيجى للتربية الاسلامية العربية هو الوصول بالفرد الى الحال الذى يكــون

فيه مسلما فى الاعتقاد والمشاعر والسلوك ، وعربيا فى القول والاتجاه والاهتمام ، متقنا لمهنته وعمله حسب الأساليب السائدة ، خاضعـا فى كل جوانب حياته للاسلام •

و « الاقتصاد الاسلامى » هو الذى يوجه النشاط الاقتصادى وينظمه وفقا لأصول الاسلام • فالاقتصاد الاسـلامى ذو شـقين : الأول شق ثابت ، والثانى شق متغير • فبالنسبة للشق الثابت انه مجموعة الأصول الاقتصادية التى جاءت بها نصوص القرآن والسنة ليلتزم بهـا المسلمون فى كل زمان ومكان ، ومن قبيل ذلك :

١ ــ أن المال مال الله والبشر مستخلفون فيه •

٢ ــ ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع الاسلامى •

٣ ــ تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الاسلامى •

٤ ــ احترام الملكية الخاصة •

٥ ــ الحرية الاقتصادية المقيدة •

٦ ــ التنمية الاقتصادية الشاملة •

٧ ــ ترشيد الانفـاق •

أما الشق المتغير فهو يتعلق بالتطبيق ، وهو عبارة عن الأساليب والحلول الاقتصادية التى يكشف عنها أئمـة الاسلام لاحالة أصول الاسلام ومبادئه الاقتصادية الى واقع مادى يعيش المجتمع فى اطاره•• فالاقتصاد الاسلامى « مذهب ونظام » ، فهو مذهب من حيث الأصول ، ونظام من حيث التطبيق •

من هذا التحليل لمحتويات الفصل الأول من الكتاب ، يمكن القول بأن الكاتب ناقش أسلوب الدين الاسلامى فى معالجة شئون الحيـاة من النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والتعليمية ، والاقتصـادية ، وتحقيق الأمن النفسى والرضا •• وهذه كلها جوانب تتعلق بشئون الحياة الدنيـا ••

وأفرد الكاتب الفصل الثانى لمناقشة النواحى الأخلاقية فى الاسلام بعنوان « الدين المعاملة » •• فلقد حدد رسول الانسانية — محمد عليه الصـلاة والسلام — منهاج دعوته بقوله : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، بمعنى أن رسالته تنشد تدعيم الفضائل ونشرها بين الناس ، فليكن لنا فى رسول الله أسوة حسـنة • ان الأخلاق فى الاسـلام لم تدع جانبا من جوانب الحياة الانسانية الا رسمت له المنهج الأمثـل للسـلوك القويم •• فمن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفـرد فى كافة نواحيه : باعتباره جسما له ضروراته وحاجاته ، وعقلا له مواهبه وآفاقه ، ونفساً لها مشاعرها ودوافعها • ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع : فى آدابه ومجاملاته ، وفى اقتصادياته ومعاملاته ، وفى سياسة وحكمه •• فالاسلام دين سمح يشجع على التسامح — والحلم ، وضبط النفس • والعدالة فى الأقوال والأفعال مطلوبة فى كل زمان ومكان ، مع مراعاة مبدأ المساواة الانسانية • والصدق فضيلة ، فالتمسك به فى كل شـأن ، وتحريه فى كل قول وفعل ، والالتجاء اليه فى كل حكم ، دعامة أساسية فى خلق المسلم • وعلى كل انسان أن يحترم كلمته ووعوده ، وأن يخلص النية والقلب والضمير للخالق سبحانه للارتفاع بمنزلة العمل الدنيوى • وعلينا أن نوطد أنفسنا على احتمال المكاره ومواجهة الأعباء بصبر واحتمال، فان بعد العسر يسرا • كما أوصى الاسلام بالحياء ، فينبغى اتباعـه فى الحديث دون بذاءة أو فحش ، واختيار الكلمات اللبقة التى تناسب الموقف • والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، فهو لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين ، والاخاء أساس العلاقات بين البشر • والاتحـاد قوة ، وائتلاف القلوب والمشاعر واتحاد الغايات وتوحيد الصفـوف من أهم الضرورات لقوة المجتمع الاسلامى وصموده • •

وهكذا نجد الاسلام يعمل على تهذيب النفس البشرية ، ويكرس جهودا ضخمة للتغلغل فى أعماقها وغرس تعاليمه فى جوهرها • فلقد عمل الاسـلام على اسداء المعونة الكاملة للانسان ، كى يدعم فطرته ويجلى أشعتها يسير على هديها ، وكى يتخلص من وساوس الاثم التى تراوده وتحاول السقوط به •

وناقش الكاتب فى الفصـل الثالث الاسـلام باعتباره « دين الانسانية » •• فالانسان فى عقيدة القرآن هو المخلوق المسئول بين جميع المخلوقات •• يدين بعقله ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع • « والانسانية » أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه • ان النظام الاجتماعى الاسلامى ينطوى على العناصر الآتيـة :

١ ــ امتياز الاسلام بالصفة الانسانية •
٢ ــ امتياز الاسلام بالصفة العمومية •
٣ ــ امتياز الاسـلام بالجاذبية الاجتماعية •
٤ ــ امتياز الدين الاسلامى بالموضوعية •
٥ ــ امتياز الاسلام بالالزام الاجتماعى •
٦ ــ امتياز الاسلام بالترابط الاجتماعى •

واذا كان الانسان يولد فردا ويعود الى ربه فردا ، غير أنه يعيش طوال حياته داخل جماعات صغيرة فى اطار المجتمع • ولقد ميز الله ــ سبحانه ــ الانسان وكرمه وفضله على كثير من خلقه ، وتتضح مظاهر التكريم الالهى للانسان فى الآتى : استخلافه فى الأرض ، وخلقه فى أحسن تقويم ، وتميزه بالعنصر الروحى ، وتميزه بالعقل والتفكير ، وتسخير الكون لخدمته ، والغاء الوساطة بين الله والانسان ، والاعتراف بالكيان الانسانى كله •

وجاء الاسـلام ليقرر أن للانسان حقوقا ينبغى أن ترعى ، كما أن عليه واجبـات ينبغى أن تؤدى •• ومن حقوق الانسان التى أقرها الاسلام : حق الحياة ، وحق الكرامة ، وحمـاية العـرض ، وحـق الكفاية التامة •

وهكذا راعى الاسلام كل الجوانب الانسانية فى تعامله مـع الانسان ••

والاسلام « دين الواقع والعمل » •• فلقد جاء الاسلام بعقيدة واقعية ، لأنها تصف حقائق يقبلها العقل وتستريح اليها النفس •• فلقد

راعى الاسلام واقع الحياة وظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، كما عرف طبيعة الضجر والملل فى حياة الانسان فنوع الأنشطة والعبادات التى يقوم بها ، كما راعى الاسلام الظروف الطارئة للانسان كالمرض والسفر فشرع الرخص والتخفيف • وقد راعى الاسلام الواقعية عند التعامل مع الانسان • • فلم يفرض عليه التخلى عن ثروته ، أو التخلى عن حقوقه به سمح له أن يقابل السيئة بمثلها وان كان قد حث على العفو والتسامح ، كما أقر الفروق الفردية بين الناس ، وراعى الظروف الاستثنائية — كالحرب — فأباح من أجلها ما لا يباح فى ظروف السلم • ومن واقعية الشريعة الاسلامية أنها لم تحرم شيئا يحتاج اليه الانسان فى واقع حياته ، وأنها قدرت الضرورات حق قدرها ، كما أباحت تعدد الزوجات، تقديرا للظروف التى تعرض للانسان فى حياته الزوجية مثل مرض الزوجة أو عدم انجابها ، وأباحت الطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين ، كما اعترفت الشريعة بمبدأ الملكية الفردية فى اطار صالح الجماعة • • والاسلام دين الشمول : فهو رسالة الزمن كله ، ورسالة العالم كله ، ورسالة الانسان كله •• والاسلام دين العمل والانتاج ، فهو يقرر أن العمل فريضة وعبادة ، وجعل العمل مقابلا للحياة ولا قيمة لها بدونه •

ومن أبرز خصائص الاسلام « الوسطية / التوازن » ، وتتضح مظاهر الوسطية فى الاسلام فى جوانب عديدة •• فمن وسطية الاسلام فى الاعتقاد ما يأتى : أنه وسط بين المتشددين الذين يسرفون فى الاعتقاد وبين الماديين الذين ينكرون ما وراء الحس ، وهو دين وسط بين الملحدين وبين الذين يعددون الآلهة ، ووسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده وبين الذين يعتبرون الكون وهما لا حقيقة له ، ووسط بين الذين يؤلهون الانسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، ووسط بين الذين يقدسون الأنبياء ، وبين الذين كذبوهم ، ووسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود والذين لا يؤمنون الا بالوحى والالهام • وتتضح وسطية الاسلام فى الأخلاق فيما يأتى : أن الاسلام وسط فى الأخلاق

بين غلاة المثاليين وبين غلاة الواقعيين ، ووسط فى نظرته الى حقيقة الانسان بين المذاهب التى تعتبره روحا علويا سجن فى جسد أرضى وبين المذاهب المادية التى تعتبر الانسان جسدا محضا وكيانا ماديا بحتا لا يسكنه روح ، وهو وسط بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا أن الحياة الدنيا هى كل شىء وبين الذين رفضوا الحياة الدنيا وألغوا اعتبارها من وجودهم ، والاسلام يحقق التوازن بين الروحية والمادية • ومن وسطية الاسلام فى التشريع ما يأتى : أنه وسط فى التحريم والتحليل بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم وبين المسيحية التى أسرفت فى الاباحة ، ووسط فى شئون الأسرة بين الذين شرعوا تعدد الزوجات دون قيد وبين الذين رفضوا التعدد وأنكروه ، وهو وسط بين الذين حرموا الطلاق لأى سبب كان وبين الذين أرخوا العنان فى أمر الطلاق فلم يقيدوه بأى شروط ، وفى النظام الاسلامى تلتقى الفردية والجماعية فى صورة متزنة •• فقرر الاسلام حرمة الدم ، وحرمة العرض ، وحرمة المال ، وحرية العقيدة ، وحرية الرأى والفكر ، والمسئولية الفردية •• ومع هذه الحقوق والحريات للفرد فقد فرض على الفرد ألا تتعارض حريته الفردية مع مصلحة الجماعة ••

ولقد كان « العدل » أول ما قرره الاسلام حفظا لكيان المجتمع البشرى •• فالعدل نظام الله وشرعه ، والناس خلقه وعباده يستوون ، دون تفرقة بين عربى وأعجمى أو ذكر وأنثى •• ولقد قرر الاسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ، وأقام العدالة الاجتماعية على أسس هى : التحرر الوجدانى ، والمساواة الانسانية الكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق فيما بين الفرد وذاته وبين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة •

والاسلام دين التشريع للفرد والأسرة والمجتمع •• فالفرد يعيش فى كنف الجماعة فى وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى ، لها استقلال مقيد وحرية محدودة • وتحظى الأسرة فى التشريع الاسلامى باهتمام كبير ، خاصة وأنها النواة التى تنبثق عنها جميع العلاقات البشرية • ويعطى الاسلام للأسرة من الرعاية والعناية والحماية ما لم تعطه لها شريعة أخرى ، مؤكدا بذلك تقديره لمكانتها ودورها الفعال فى بناء المجتمع

الصالح • ولقد أفرغ الاسلام على عقد الزواج صبغة « الميثـاق الغليظ » ، ولذا عنى بجملة من الوسائل التى من شأنها أن تدعم الحيـاة الزوجية وتقيها من التدهور والانحلال ، وعنى بهذه الوسائل قبـل الزواج وأثناءه وهى تتلخص فى الآتى : «التعرف» فيما بين الطرفين قبل الاقـدام على الارتباط برباط الزوجية ، « والخطبة » حتى يدرس كل من الطرفين الطرف الآخر عن قرب،«والرضا» التام بين الطرفين وهو شرط فى صحة عقد الزواج ، « والكفاءة » أى يكون الزوج كفؤا للزوجة ، « والمهر » وهو منحة تقدير للمرأة ، ودعائم الحياة الزوجية السعيدة ، ودرجة الرجال على النساء ، والتشاور فيما بين الزوجين • وقد عـرض الاسلام فى نصوص القرآن الكريم لكثير من شـئون المرأة ، ومنحها كل خير وصانها من كل شر •• ومن الخطوط الرئيسية فى هذا المجـال التى تشير الى حقوق المرأة وأحكامها ومنزلتها فى ضوء الشريعـة الاسلامية : أنها الأصل الذى خلق منه الانسان ، وأنها ذات مسئوليـة ، وحقها فى التعلم ، وأهليتها فى العقود ، وشهادة المرأة وميراثها • والاسلام دين الرحمة والحب ورعاية الجميل • ولقد جعل الله بين الناس ضروبا من الصلة يتراحمون بهـا ، وأقوى هذه الصلات « صلة الرحم » ، التى عظمها الاسلام ونهى عن قطعيها • وأوضح القرآن الكريم أن الذرية زينة الحياة الدنيا ، حيث ان صلة الآباء بالأبناء صلة فطرية مدفوعة بحب البقاء • ولقد أوصى الاسلام بالوالدين والبر بهما ، كما أوصى بالأبنـاء ورعايتهم • •

وبعـــد • •

من خلال هذا التلخيص لما عرضه الكاتب فى فصول الكتاب الستة نرى بوضوح أن الاسلام تعرض لكل شأن من شئون الحياة بواقعية بناءة ، ووسطية متزنة ، وعدل كامل •• فبدأ بالفرد والجماعة والأسرة والمجتمع بأكمله ، ولاحق الانسان فى أخلاقه ومعاملاته وسـعيه لكسب رزقه ، مطبقا أرقى معانى الانسانية والرحمة •• انه بحق دين المعاملة ، والانسانية ، والسماحة ، والرحمة ، والوسطية ، والواقعية ، والعدل ، والعمل والانتاج • • فهو دين الحياة بلا شك •

* * *

مراجـــع الكتـــاب

١ ـ ابن قيم الجوزية : **مدارج السالكين** . بيروت : دار الكتـــاب العربى ، ١٩٧٢

٢ ـ أحمد فارس : **النماذج الانسانية فى القرآن الكريم** . بيروت : دار الفكر . د.ت .

٣ ـ حسن عبد الله أبو ركبة ، وعبد العزيز أبو غنيمة : **التنظيم الادارى فى الفكر الاســلامى** . جدة : مركز البحوث والتنميـــة ، كلية الاقتصـــاد والادارة ، ١٩٨١ .

٤ ـ زيدان عبد الباقى : **المرأة بين الدين والمجتمع** . القاهرة : مكتبـــة النهضة المصرية ، ١٩٧٧ .

٥ ـ زيدان عبد الباقى : **علم الاجتماع الاسلامى** . القاهرة : مطبعـــة السعادة ، ١٩٨١ .

٦ ـ زينب رضوان : **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى** . القاهرة : دار المعـــارف ، ١٩٨٢ .

٧ ـ سعيد حوى : **الاسلام (٤ أجزاء)** . القاهرة: مكتبة وهبة ، ١٩٧٧ .

٨ ـ سعيد حوى : **دروس فى العمل الاسلامى** . حلب : دار السلام للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .

٩ ـ سعاد ابراهيم صالح : **علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية** . جدة : تهامة ، ١٩٨١ .

١٠ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** (ط ٢) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٤ .

١١ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **الدين المعاملة** . جدة : ادارة تـــدريب التسويق ، الخطوط الجوية العربية الســـعودية ، ١٩٨٥ .

١٢ ـ سيد عبد الحميد مرسى : **الشخصية المنتجة** . « سلسلة دراسات نفسية اسلامية (٣) » . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ .

١٣ ـ سيد قطب : **العـــدالة الاجتماعيـــة فى الاســـلام** . القاهـــرة : دار الشروق ، ١٩٥٤ .

١٤ — سيد قطب : **فى ظلال القرآن** (٦ أجزاء) « ط ٨ » . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٩ .

١٥ — صلاح عبد القادر البكرى : **القرآن وبناء الانسان** . جدة : تهامة ، ١٩٨٢ .

١٦ — عباس محمود العقاد : **الانسان فى القرآن** « ط ٢ » . بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩ .

١٧ — عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٧١ .

١٨ — عبد البديع صقر : **مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف** « ط ٣ » . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢ .

١٩ — عبد السميع المصرى : **مقومات العمل فى الاسلام** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢ .

٢٠ — عبد الفتاح جلال : **من الأصول التربوية فى الاسلام** . سرس الليان : المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، ١٩٧٧ .

٢١ — عبد الله الخريجى : **علم الاجتماع العائلى مع دراسة للعائلة فى الاسلام** . جدة : دار الشروق ، ١٩٨١ .

٢٢ — عبد الله الخريجى : **نظم المجتمع السعودى مع التطبيق على المجتمع العربى السعودى** . جدة : رامتان ، ١٩٨٣ .

٢٣ — عز الدين بليق : **منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين** . بيروت : دار الفتح ، ١٩٧٨ .

٢٤ — على عبد الواحد وافى : **حقوق الانسان فى الاسلام** « ط ٤ » . القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٧ .

٢٥ — فاروق أحمد دسوقى : **مقومات المجتمع المسلم** . الاسكندرية : دار الدعوة ، ١٩٨٣ .

٢٦ — محمد البهى : **الاسلام فى حياة المسلم** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣ .

٢٧ — محمد البهى : **القرآن الكريم يقول** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ .

٢٨ — محمد البهى : **منهج القرآن فى تطوير المجتمع** « ط ٢ » . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ .

٢٩ — محمد البهى : **الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر** ، **مشكلات الأسرة والتكافل** « ط ٣ » . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢ .

٣٠ — محمد الغزالى : **خلق المسلم** . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ .

٣١ — محمد رشدى اسماعيل : **أحكام الزواج فى الاسلام** .. القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٣ .

٣٢ — محمد شوقى الفنجرى : **نحو اقتصاد اسلامى** . جدة : عكاظ للنشر ، ١٩٨١ .

٣٣ — محمد طلعت عيسى (ترجمة) : **تنظيم وقيادة الجماعات** . القاهرة : دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ .

٣٤ — محمد عثمان نجاتى : **القرآن وعلم النفس** . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢ .

٣٥ — محمد كرد على : **الاسلام والحضارة العربية** . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

٣٦ — محمد متولى الشعراوى : **عدالة الله** . القاهرة : لجنة البيان لدار المسلم ، د.ت .

٣٧ — محمود أحمد حماد : **المجتمع الاسلامى ، كيف يبعث من جديد** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٣٨ .

٣٨ — محمود شلتوت : **الاسلام عقيدة وشريعة** « ط ٨ » . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥ .

٣٩ — يوسف القرضاوى : **الايمان والحياة** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠ .

٤٠ — يوسف القرضاوى : **الخصائص العامة للاسلام** . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١ .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

❊ ❊ ❊

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٨٦/٤٣٩٥
الترقيم الدولى ٨—٧٧—٠٧—٣٠٧—٩٧٧